كردهار (رواية)

بقلم/محمد علي حماد

إبهار

الطبعة الأولى

رئيس مجلس الادارة مها مقداد

المؤلف / محمد على محمد حماد

تصنيف الكتاب: رواية

عنوان العمل :(كردهار)

تصميم الغلاف / مصطفى كرم الفرا

التصميم والإخراج / محمد على حماد

المقاس ١٤x٢٠

رقم الايداع :١٣٩٨٢/ ٢٠٢١

الترقيم الدولي: 978-977-6736-95-5

الطبعة الاولي : ٢٠٢١م

إهداء

الى ذلك الخلوق

الى ذلك الانسان

الى الأخ العزيز

الى حضرة الرائد / محمد بك خليفة

أهدى هذا العمل

محمد على حماد

تنويه

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، ولا يحق لأى جهة او شخص نشر الكتاب او جزء منه الا بموافقة المؤلف كتابيا. كذلك لا يحق لأى جهة تحويل العمل الى منتج اذاعة او تليفزيوني او سينمائي دون الرجوع الى المؤلف مع العلم بأنه قد تم معالجة العمل دراميا و جاهز للعرض على شركات الانتاج

المؤلف

محمد على محمد حماد

تحذير هام للغاية

قد تندهش عزيزي القارئ حينما تعلم ان كردهار من الجان السفلي وهي أميرة علي سبع قبائل من الجان وقد تندهش أكثر حينما تعلم ان سيد بطل الرواية هو شخصية حقيقية وقد وقعت في عشقه كردهار مع العلم ان هذه هي إحدى الحقائق في هذا العمل ومعظم الاحداث من وحي الخيال.

ومن قبيل الأمانة والتحذير فإن الطلاسم التعويذات والعزائم الواردة في الرواية كلها حقيقية علما بأن قرأتها سوف تسبب لك ضرر مؤكد وحتمي ولا ننسي ما حدث في فيلم عاد لينتقم حينما استعان المخرج ياسين إسماعيل ياسين بالروحاني الفلكي المعروف السيد الحسيني و الذى استخدم عزيمة حقيقية في هذا المشهد و هذه التعويذة اسمها البرهتية مما تسبب في كوارث حقيقية لكل من سمع هذه التعويذة. ويقال ان السيد الحسيني الفلكي كان سببا في دخول الجان في كثير من البيوت مما تسبب في الكثير من المشاكل داخلها ويقال ان بعض دور السينما

التي عرض فيها الفيلم نشبت فيها الحرائق. والمثير للدهشة والاستغراب ما حكاه المصورون اثناء تصوير مشهد الفلكي الروحاني فقد لاحظوا خيالات و مشاهد مرعبة الامر الذي أضطرهم لإعادة المشهد عدة مرات.و لا ننسي ما حدث للروحاني الفلكي السيد الحسيني فقد مات في ظروف غامضة و مريبة و قد ادعي البعض ان الجن هو من قتل هذا الرجل.

لذلك فإني اكرر تحذيري من قراءة التعويذات والطلاسم الواردة بهذه الرواية لأنها تعويذات حقيقية موجودة ومستعملة في كتب تحضير الجان.

اللهم ان بلغت اللهم فأشهد.

المؤلف /

محمد علي حماد

الفصل الاول

اذا كنت لا تؤمن بالجن و العفاريت ارجوك ان تترك هذه الرواية من يدك و قبل أن تقرأ حكايتي أرجوك لا تتهمني بالدجل او الشعوذة أو الجنون فهذه الحكاية حدثت معي بكل تفاصيلها و لكم الحق ان تصدقوها أو تكذبوها.

ما دفعني أن أكتب حكايتي هو انى على مشارف التهلكة ، قد لا أنتهى من كتابة حكايتي و تنفتح صوبي كل أبواب الجحيم و تنصب على رأسي كل لعنات المظلومين ، فأنا واحد من هؤلاء الذين أعماهم الطمع و أسلموا أنفسهم لمردة الجن و زبانية الجحيم ، أشعر أن نهايتي قد حانت و لن أطيل عليكم تعالوا بنا نبدأ الحكاية

أنا سيد في الخامسة و الثلاثين من العمر أبيض البشرة، أسود الشعر، أمتلك عينان خضراوان، لا بالطويل و لا بالقصير،

ملامحي هذه تجذب النساء من حولي كما يجذب الضوء الفراشات. هناك علي الجانب المضيء من حياتي، فاطمة زوجتي و حبيبتي، انها ذلك الملاك البريء الاخت الوحيدة لستة من الرجال فرقتهم لقمة العيش و اجتمعوا علي حب فاطمة. اكبرهم صابر اختار محافظة الوادي الجديد حيث الهدوء و الخير محلا لإقامته، بينما اختار ايمن و سمير محافظة الاسكندرية مكانا لإقامتهما. اما ربيع و مصطفي فقد اختارا حي السيدة زينب حيث مكان عملهما. سادسهم سرحان اختار مسقط رأس العائلة محلا وسكنا.

أما أنا فحاصل على دبلوم تجارة، أعشق قيادة السيارات حتي الثمالة . لي أصدقاء و معارف في كل محافظات مصر. يتيما جئت الي الدنيا ليس لي إخوة أو أخوات. طفولة بائسة تعيسة لا مكان فيها للراحة أو الرفاهية .في البداية لم يكن لنا من مصدر رزق سوي الصدقات و أموال البر و الزكاة .رحلتي مع العمل و الشقاء بدأت مبكرا للغاية . في أيام العطلات و الاجازات كنت أحمل فأسي الصغير و طعامي الضئيل متوجها إلي الحقول .ليس لك أن تتخيل نظرة البؤس و التعاسة التي يصوبها طفل كهذا لأقرانه و للمجتمع من حوله . أما بدايتي في مجال قيادة السيارات بدأت حينما كنت أعمل أجيرا في الحقول لدي أحدهم ساعتها أعجبتني فكرة ركوب الجرار الزراعي . حينها حظيت بإعجاب صاحب الجرار و منحني وظيفة قائد جرار زراعي .بعدها كان من السهل أن أتعلم قيادة السيارات.

أبدا لا أنسي المرة الاولي التي مارست فيها القيادة، حينما كنت طالبا بالصف الاول الثانوي الفني حينما القت الشرطة القبض علي سائق سيارة الأجرة والتي كانت مملوكه لأحد جيراننا. ساعتها تطوعت بقيادة السيارة متوجها بها الي قريتنا . بعدها عملت سائقا بالأجر ، كدأب معظم السائقين تعاطيت جميع أنواع المخدرات و المسكرات ، بدأ من الحشيش و البانجو و التامول و الترامادول و جميع أنواع المخدرات فهذه الأشياء تمنحنا يقظة و انتباها نحن في أمس الحاجة إليهم ... أرمل منذ أيام و هذا ما دفعني أن أقص عليكم حكايتي المرعبة والتي بدأت منذ عشر سنين في خريف 2010 حينما التقيت بذلك الكهل موسي .

رغم نفور الجميع منه الا ان شيئا غريبا يجذبني اليه ربما هو ذاك الغموض الذى غلف حياة هذا الرجل، عيناه الزائغتان الحمراوان... تلك الكتب الصفراء القديمة و التي يحافظ عليها باهتمام بالغ، بيته المرتب دائما بالرغم من حياة الوحدة الكئيبة التي ألفها... من أين و كيف يقتات هذا الرجل؟ لم أره و لو لمرة واحدة يزاول عملا أو مهنة ، فقط ذلك الموقد و البخور و تلك الطلاسم....البعض يدعى أنه ضالع في تحضير الجان

..انه ذلك الفضول القاتل و الذى قادني لهذه القصة المرعبة...

رجفة غريبة أصابتني حينما توقفت على أعتاب موسي، حينما استبد بى الخوف و قررت الفرار حدث أمر غريب، صوت الكهل موسي تعالى من وراء الباب:

-" ادخل و ما تخفش يا سيد "

أزداد رعبي حينما انفتح الباب من تلقاء نفسه،

كالمسحور وجدتني اعبر تلك الردهة...

غالبني سعال حاد حينما اخترقت زخات البخور الحادة انفى ...

-"مبروك عليك الشغلانة الجديدة يا سيد"

-"الله يبارك فيك يا عم الشيخ...بس عرفت ازاى؟ " .

-" اقعد و ما تسألش كتير"

سرت قشعريرة غريبة فى جسدي ثم جلست فى مواجهة الكهل، لم أحاول أن أفهم شيء من تلك الكلمات التى راح يرددها.... عرق غزير تصبب فوق جبينه ...

شعرت بنسمات تداعب وجهى، و كأن هناك اجسام هوائية تداعبني..

شعرت أن أسربا من النمل تجتاح جسدي...

بعد لحظات بدأ صوته ينخفض واتجهت ملامحه نحو الهدوء...

-" لسه فاضل شوية على طلبك يا سيد .. تحلى بالصبر و قول يا رب"

-" و نعم بالله يا مولانا... "

من ذلك الصندوق الخشبي المتهالك تناول موسي لفافة ورقية ناولني إياها:

-"خد دي و اخلطها على رطل عسل نحل و خد منها صبح و ليل و بإذن الله هيتحقق مطلوبك ".

-" كنت عاوز اخد رأيك في الشغلانة الجديدة "

-"شغلانة قدمها خير.... ما تسألش كتير و قوم روح علشان فاطمة قلقانة عليك "

و ضعت تلك اللفافة فى جيب الصديرى و انطلقت نحو منزلي في لهفة...

انتابني شعور جارف بالشفقة حينما فتحت باب الشقة و وجدتها على الأريكة بإنتظارى،حينما رأتني ألقت بنفسها في أحضاني....مؤلمة جدا الحياة بلا ذرية و أطفال

-"إتأخرت ليه؟..... كنت هاموت من القلق عليك "

-"ألف بعد الشر أنا خلصت شغل علي العربية وسلمتها لصاحبها بعد كده عديت علي الشيخ موسي "

قبلة حانية طبعتها على جبينها قبل تتبعد بجسدها فقط بينما روحي هائمة فى بحارها..

-"عندى ليكي خبر مفرح!"

-" ان شاء الله خير....قول فرحني"

-"لقيت شغل مع رجل أعمال كبير."

-"رجل أعمال؟ فين دا؟."

- "صاحب شركات في القاهرة."

بدا عليها شيء من الحزن الا أنها لم تتكلم

-"ما تخافيش مش ها اسيبك لوحدك...اخدت لك شقة... ما اقدرش أعيش من غيرك يا بطة..."

-"يعنى مش هتدور على واحدة غيري تجيب لك العيل اللى نفسك فيه "

-"انت عندي اهم من العالم كله....انت بنتي و اختى و زوجتي و حياتي..."

-"اتعشيت؟"

-"ما اقدرش أتعشى من غيرك.."

-"ربنا ما يحرمنيش منك..."

لحظات فقط استغرقتها فى اعداد الطعام .

مهما يكن حبك لزوجتك لا يمنعك هذا من التفكير فى الذرية و الولد..

-"قابلت الشيخ موسي؟"

كلماتها ذكرتني بتلك اللفافة التي منحنيها ذلك العجوز فمددت يدى الى جيبي بحثا عنها

-" اخلطى دي على رطل عسل نحل.."

تناولتها منى باهتمام قائلة:

-امى بتقول ان الشيخ موسي سره باتع "

-"قولي يا رب."

تفاصيل و احداث كثيرة وقعت بعد أن تناولت منى اللفافة و لكنى لن أقصها عليكم حتى لا يتهمني أحد بالانحلال و الزندقة....رغم أننا جميعا نستمتع بهذه اللحظات الا أننا لا نحكيها علي الملأ...

من الصعب ان تغادر مكانا ألفته و أشخاص تعودت عليهم ولكنها لقمة العيش المريرة...سارت الامور بسلاسة و يسر، و انتقلنا الى تلك الشقة فى حى السيدة زينب،هذا الحى العريق و الذى تنبعث من جنباته رائحة الطهر و البساطة فى كل شيء، شعور بالراحة انتابني حينما وطئت قدماي هذا المكان..

شقة بسيطة حجرتان و صالة و مطبخ و حمام....

ما بعث الطمأنينة في نفسي هو اقامتنا في نفس العقار الذي حوي صهراي مصطفي و ربيع، لذا فقد غمرني شعور بالاطمئنان و الثقة.

غمرني شعور بالراحة و أنا أخطو أول خطواتي فى مقر عملي الجديد.....الا ان شعورا بالرهبة خامرني و انا أقف فى حضرة صاحب الشركة سعد السعيد المتكئ على مقعده الوثير

-"اهلا يا سيد..إنت معاك رخصة قيادة درجة أولى و معاك شهادة القيادة الآمنة. صح؟"

-"صح يا باشا "

رمقني بنظرة ملؤها الدهشة والاستغراب قائلا:

-"غريبة انك تحصل على رخصة درجة أولى ففي السن الصغير دا و كمان رخصة القيادة الآمنة دا معناه انك محترف قياده...عموما انا تأكدت من صحة مستنداتك بنفسي،علشان كده انت تبقي السواق بتاع عربيتي"

-"شكرا على ثقتك الغالية دي يا باشا وبإذن الله هاكون عند حسن ظنك."

-"اهم شيء فى شغلنا هو الامانة...لا اسمع.. لا أرى... لا أتكلم"

صمت لحظات مركزا ببصره على عيناي. رعدة قاسية سرت في جسدي بسبب ذلك التهديد المرعب و الذى حملته نظراته القاسية المخيفة

-"احنا ايدينا طايلة و ضربتنا و القبر."

-"ان شاء الله هاكون عند حسن ظنك"

من فوق مكتبه فاحش الثراء تناول ميدالية بها عدد من المفاتيح ناولني اياها

-"خد يا سيد دي عهدتك، مفاتيح العربية و الجراج و فوت على المخازن هتلاقى يونيفورم و ملابس مناسبة.....على فكرة مرتبك مبدئيا اتناشر الف جنيه غير الحوافز والبدلات..."

لكم أن تتخيلوا سعادتي و أنا أسمع هذا الرقم و الذى لا يجرؤ معلم قدير- أفنى حياته بين الكتب- أن يحلم بنصفه، لهذا السبب لم يستهويني السير فى دروب التعليم الجافة القاحلة و عشقت ركوب السيارات بكل أنواعها حتى الثمالة..

-"على بركة الله نبدأ مهام عملنا الجديد"

ترددت هذه الكلمات فى نفسي و أنا أتوجه نحو تلك السيارة الفارهة.....ألجمتني المفاجأة حينما رأيتها انها بوغاتي لافواتيور نوار

ثمن هذه السيارة وحدة كفيل بحل أزمات ألاف الشباب، فقد يربوا سعرها على الثمانية عشر مليون دولار...

فى الوقت الذى لا يجد فيه البعض منا قوت يومه يركب هذا الباشا بنكا متحركا كفيلا بحل أزمات ألاف البسطاء ..لم يستوقفني الأمر كثيرا فأنا مؤمن بعدل الله و بقضاء الله "و لو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الارض و لكن ينزل بقدر ما يشاء، انه بعباده خبير بصير"

قبل أن أنخرط فى أفكاري و تأملاتي دق هاتفي و كان محدثي هو مكتب السكرتارية

-"استعد علشان توصل الباشا للفيلا "

في همة و نشاط قمت بتلميع الزجاج و الابواب و انطلقت بالسيارة حيث مدخل الشركة لكى لا يتكبد الباشا مشقة المشي خطوات، عدلت من هندامي و انتصبت كل ذرة من جسدي و كأنى ضابط تشريفة في حرس الرؤساء..

-"اتفضل يا باشا...."

نطقتها باحترام بالغ و أنا أفتح باب السيارة

-"اطلع بينا ع الفيلا...."

بالنسبة لي قيادة هذه السيارة أسهل بكثير من قيادة دراجة هوائية...

بعد لحظات وجدتني فى الجنة. نعم ما رأيته بالنسبة لي هو الجنة بعينها....

قصر منيف تحيطه حديقة غناء يطل على حمام سباحة...و تفاصيل اخرى كثيرة لن أقصها عليكم كي لا أفجر بحار و براكين من المقارنة التي ستؤدى بكم حتما الى شعور بالحقد و الدونية...

-"اركن العربية فى الجراج اللى هناك و انتظر في الاستراحة."

-"حاضر يا باشا..."

لم يفاجأنى عدد السيارات القابعة فى الجراج و لا فخامتها فأقلها لا يقتنيها سوى وزير...

-"ازيك يا اسطى سيد..اتمنى انك ترتاح معانا."

لفتت انتباهي هذه الكلمات فنظرت نحو قائلها فى دهشة ليطالعني ذلك الاسمر النحيل فاره الطول والذى بد لي في عقده السادس.

حينما اقتربت منه كي أصافحه نهض من فوق سريره مرحبا فبادرته قائلا

-"اهلا بيك. بس ممكن اتشرف بمعرفتك؟"

-"انا دمر داش الصعيدي أقدم سواق و موظف مع الباشا شغال معاه من بداية حياته."

-" اهلا يا عم دمرداش كويس انى قابلتك علشان تفهمني و ضع الشغل هنا "

-"بص يا ابنى انا زي ابوك و ربنا ما رزقنيش بالأولاد لذلك هاعتبرك زي ابنى."

في حجرة العمليات حينما تخترق ابرة البنج العمود الفقري لتمس النخاع تحدث رعدة غريبة أشبه بسريان الكهرباء في الجسم، لا يشعر بها الا من جربها

نفس الرعدة و القشعريرة أصابتني حينما لطمت هذه الكلمات أذناي...

لولا هذا الضعف و ذاك العوز ما تقارب الفقراء و اصحاب الجراح المتشابهة، فلو أننا جميعا أثرياء، لدينا كل حاجتنا لاستغنينا عن بعضنا البعض

-"مالك يا ابنى سرحت فين و شردت ف ايه؟ "

-" هه...لا أبدا انا معاك..اتفضل كمل."

-"اول شيء علشان تاكل عيش هنا الامانة اللى تشوفه هنا انت ما شوفتوش و اللى تسمعه بره المكان ما سمعتوش و اهم شيء هو الطاعة، فاهم يا سيد؟"

-"فاهم يا عم الحج"

-" بالنسبة للمبيت هيكون هنا في الاستراحة دي و الشغل هيكون ورديات بيني و بينك، زى ما تحب.. عاوز انت تشتغل اسبوع و انا اسبوع ماشي، بس أهم شيء يكون فيه واحد مننا متواجد طول

الوقت.....كل شيء هنا بنظام الباشا بيصحى الساعة تسعة الصبح يتمشى شوية...و كل شيء بالورقة و القلم."

انتابني شعور بالحيرة فهذا معناه أنى سأضطر أن أترك فاطمة لأيام و قد يمتد الأمر لأسابيع..

-"مش ممكن نخليها ورديات يومية ..؟المدام لوحدها فى الشقة لان ربنا ما رزقناش بالأولاد."

--"صعب...ممكن تسافر مع الباشا أسابيع بعيد عن القاهرة "

بما حباه الله من فطنة قرأ الرجل ما فى داخلي:

-" الليلة دي ارجع لمراتك و احسم أمرك."

هززت رأسي موافقا و تركته دون كلمة واحدة و عدت الى زوجتي ، على غير توقعي وجدتها سعيدة

-"ايه رأيك في المكان؟"

-" عتبته حلوة و مريحة، و انت عملت ايه في الشغل؟"

تجهمت ملامحي حينما سمعت سؤالها

"شغلانة كويسة بس....."

-"بس ايه؟"

-" ها تبعدني عنك و انا باخاف عليكي"

ضحكتها الطفولية البريئة أشعرتني بالخجل

-"انت معاك ست بميت راجل...ولا انت مش واثق فيا يا سي السيد "

نطقتها فى غنج و دلال فخاصرتها في ود قائلا:

-"ما عاش و لا كان اللى يقول كده يا بطة" .

لم تتمكن من الرد أو مواصلة الحديث لأن شفتاي التحمتا بشفتيها و تطور الأمر الى أحداث لن أقصها عليكم...جميلة هي الحياة الزوجية حينما تثق بالطرف الاخر.....

-"شوف مستقبلك يا سيد و ما تخافش عليا و ما تنساش انى هنا مع اخواتى.... صعب انك تلاقى شغلانة زي دي تانى"

أقنعتني كلماتها و حجتها المنطقية فتناولت هاتفي على الفور كى أتصل بالعم دمرداش مرتبا معه عودتي الى العمل.....

و مع عودتي كان بانتظاري أول مهمة.. رحلة الى شرم الشيخ لتوصيل الباشا و الهانم .

براعتي في القيادة كانت محط انظار الجميع ....و خصوصا حينما وقعت تلك الحادثة الرهيبة ..علي الطريق السريع طار أحد إطارات السيارة . ..لم أتوقع أن يحدث هذا مع سيارة حديثة كهذه . موقف مرعب كهذا كفيل بتحطيم أعصاب أمهر السائقين ، إلا أن الأمر كان مختلفا معي .لم تهتز شعرة واحدة من جسدي ظللت هادئا الي ابعد الحدود بحنكة و مهارة و بالتدريج خففت ضغطي علي دواسة الوقود

حتي لا تنقلب السيارة ثم انحرفت بالسيارة في ذلك الطريق الرملي ..أمتار قليلة و توقفت السيارة من تلقاء نفسها و ليس بها خدش واحد ..لم يصدق الباشا أو الهانم ما حدث لدرجة أنهما قبلا رأسي

-"الف الف شكر يا سيد انت أنقذتنا و أنقذت العربية ."

-"اتفضل ...دي مكافأة بسيطة يا سيد ."

شعورهما بالامتنان لم يكن مبالغة أو من فراغ فقد أنقذت حياتهما حرفيا كما أن أقل تلف أو عطب بالسيارة كان سيكلفهما الكثير الي جانب أن السيارة ستقل قيمتها في سوق السيارات. انتابني شعور بالظفر فقد ارتفعت أرصدتي لدي الهانم والباشا.

حينما وصلنا الي شرم الشيخ لم يعنيني ذلك الاختلاف البائن بين عالمي وبين هذا العالم...ذلك الفراش الوثير وتلك النهود الفائرة لم تمنعني من التفكير في زوجتي...

لم يستغرق الامر طويلا لكى احظى بثقة الباشا وزوجته...عشرة أيام كانت كفيلة لبث الطمأنينة في نفسيهما و خصوصا بعد تلك الحادثة

-"جهز نفسك يا سيد....عندنا حفلة مهمة الليلة دي."

لم تستغرق الرحلة من الفندق الى مكان الاحتفال سوى ساعة و نصف بعدها وجدت نفسي على أعتاب عالم جديد لم أشهده و لم أعتده من قبل...

يكفى أن تعلم أن ثمن تذكرة دخول الحفل خمسة الآف جنيه....راتب ضابط حديث التخرج.....

-"ادخل يا سيد ما تخافش انا جبت لك تذكرة."

نطقها الباشا حينما لمح ترددي فتناولت منه التذكرة في رهبة....في داخل القاعة عالم آخر لا يعرفه الكثير من البسطاء أمثالكم....أفخر أنواع الخمور و أغلاها، لن أحدثكم عن النساء الفاتنات كي لا أحرك فيكم براكين الشهوة و حمم الغرائز.....

-"أقعد يا سيد واقف ليه؟"

نطقتها الهانم و هي تجذبني من يدى لأجلس معهم على تلك المائدة الفاخرة

-"اومال فين مختار؟"

نطقها الباشا و هو ينظر في ساعته بنفاد صبر

-"عادته و لا هيشتريها.. طول عمره كده..."

نطقتها الهانم ثم تناولت زجاجة أفرغت شيئا من محتواها في ثلاث كؤوس تناولت أحدهم ورفعته على شفتيها دفعة واحدة تلاها الباشا فى صمت..

-"اشرب كاسك يا سيد."

لم أجد بدا من الجدل و الامتناع فامتثلت للأمر و رفعت الكأس الى شفتاي فى تردد مصطنع ....

-"انا اسف جدا على التأخير يا باشا "

نطقها مختار المنوفى ذلك الاسمر الرشيق و هو يتناول مقعدا ليجلس بلا استئذان

-"وايه الجديد؟ طول عمرك مواعيدك زفت ..."

تجاهل مختار تلك العبارة مشيرا الى قائلا:

"اومال مين المز العسول ده؟"

-"دا سيد. السواق الجديد "

مد يده الى قائلا:

-"أهلا يا ابو السيد...شكلك كده يدى على إسكندراني..."

-"لا...أنا صعيدي من اسيوط..."

-"أحسن ناس الصعايدة...أنا لفيت كتير فى الصعيد و..."

قاطعه الباشا قائلا:

-"سيبك من سيد و خليك معايا...عملت ايه فى العروسة؟"

-"خدنا المهر و عملنا الزفة و وصلت للعريس."

-"و بالنسبة للمشوار بتاع قبلي؟"

نطقتها الهانم متسائلة فرد مختار

-"محتاجين دليل و...."

قطع عبارته فجأة و رمقني بنظرة غريبة ثم واصل قائلا

-"سيبك من الموضوع ده دلوقتى و خلينا في جو النعشة و الفرفشة."

نطقها ثم هب من مكانه واقفا ليلقى بنفسه في آتون الصخب الراقص...

لم أشعر بنفسي و لم أدر كم مر على من الوقت الا انى أفقت على صوت الباشا

-"سيد....وصل الهانم دهب ها تخلص شغل هناك و بعدها ترجعوا على الفندق ."

ساعتان و نصف فقط هو ما استغرقته تلك الرحلة....

راجعت الهانم حسابات الفندق و أنهت كل ما لديها من أعمال

-"وصلني الفيلا علشان أرتاح شوية قبل ما نرجع شرم."

لحظات بعدها وصلنا الى فيلا الهانم فى دهب

-"خد الفلوس دي يا سيد و انزل هات الطلبات دي ."

تناولت تلك الرزمة الضخمة من أوراق البنكنوت و توجهت الى سلسلة محلات شهيرة و أحضرت الأشياء التي طلبتها الهانم...

رغم كثرة الأجساد التي رأيتها إلا أنى وجدت نفسي أمام فتنة مجسمة، ربة من ربات الحسن و الجمال...الهانم ترتدى قميص نوم أسود حرير..

رغم تلك البراكين المستعرة بداخلي إلا أنى بدوت كصخر أصم لا حس فيه و لا حياه...

-"ادخل خد لك دش يا سيد علشان تاكل معايا ولا هتسيبني أكل لوحدي."

-"ما يصحش يا هانم...."

بشيء من الاستياء والعتاب هتفت

-"ما تتعبنيش يا سيد....."

أمام إصرارها لم أجد بدا من التنفيذ...

رجفة، رهبة، رعدة، قل ما شئت الا أن خوفا قويا سيطر على كل خلجة من خلجاتي و لا شك عندي أنها قرأتني بوضوح...

-"ما تخافش يا سيد. خد دا هيخليك تفك "

قالتها و هى تملأ كأسا من الويسكى ناولتني إياه فجرعته دفعة واحده.

شخصا أخر غير الذى كان منذ ثوان أصبحته...

تلاشي ثوب الرجولة الذى كانت ترتديها منذ ساعات في الفندق و حل محله ألاف الأنهار من الأنوثة و الغنج و الدلال...

-"سيد...ما تكسفنيش."

تكسر صوتها و امتزج بالغنج و الدلال و هي تتناول قطعة من الاستاكوزا لتدنيها من شفتاي.....لم تمتد شفتاي نحو الاستاكوزا بل مددتها صوب تلك الكف البيضاء الجميلة لأمنحها قبلة ساخنة طويلة

-"سيد....."

صهد أنفاسها و لهيبها أذاب جليد الرهبة و الخوف داخلي فتحولت الى ثور هائج مفعم بالغريزة و الشهوة.

ألا ليت كل الزوجات يعاملن أزواجهن هكذا...

بالتأكيد لن أصف لكم ما حدث بعد ذلك و على امتداد الليل بأكمله....حينما استيقظت فى الرابعة عصرا و جدتها تتوسد ذراعي و قد التصق وجهها بصدري في شبق، لم أجد بدا من مداعبة شعرها الفاحم الأسود الطويل..

-"صباح الخير....."

نطقتها و هي تفتح عينيها في تكاسل ثم نهضت و توجهت الى الحمام...

قدرة غريبة على الفصل بين المواقف و المشاعر يمتلكها هؤلاء... فى الفراش كانت جاريتي كنت أقلبها بيداي كالدمية والان فى السيارة هى شخص آخر يأمر و ينهى...

-"حمد الله على السلامة يا هانم."

نطقتها في توقير و انا أفتح باب السيارة للهاتم أمام الفندق

-"الله يسلمك."

نطقتها في شيء من اللامبالاة و كأنها شخص آخر غير تلك التي كانت ترحوني و تتوسل الي ليلا . تركتني و دلفت الى داخل الفندق حيث مختار و الباشا بانتظارها..

فكرت أن أتجول قليلا فى المكان و قبل أن أشرع فى التنفيذ رن هاتفي

-"سيد... تعالى بسرعة. "

توجهت الى مكتب الباشا فى الفندق فوجدته محاطا بمختار و الهانم

-"تحت أمرك يا باشا."

بلا مقدمات استدار مختار متوليا بجسده نحوى

-"انت صعيدي يا سيد. صح؟"

-"صح يا باشا..."

واصل حديثه بينما صمت الباشا و الهانم

-"لفيت فى الصعيد كتير؟"

-" انا اشتغلت سواق و انا عندي اربعتاشر سنة و لفيت كتير في الصعيد."

هنا تدخل الباشا متسائلا:

-"يعنى عندك خبرة و دراية بطرق الصعيد."

-"بالتأكيد "

تكلمت الهانم للمرة الاولى

-"اتفضل دلوقتى و لما نحتاجك ها نبعت لك."

على وقع تلك الإشارة من يدها غادرت المكان و انتظرت بالخارج .

لم يطل انتظاري كثيرا فبعد حوالى ساعة من مناقشاتهم و جلستهم خرج الباشا و الهانم و طلبوا منى العودة الى القاهرة .....

-"حمد الله ع السلامة يا اسطى سيد.. يا رب تكون انبسطت في الشغل"

-"الله يسلمك يا عم دمرداش...الحمد لله تمام...اتفضل مفاتيح العربية "

إنها المرة الاولى التي افارق فيها فاطمة مثل هذه المدة، عشرة أيام متواصلة بعيدا عن فاطمة، لم يجمعني بها سوي محادثات هاتفية قصيرة...

-"حبيبي...وحشتني يا سيد"

قالتها فاطمة و ألقت بنفسها بين ذراعاي كطفلة التقت بأبيها بعد طول غياب...

-"انتي اكتر يا بطة"

شعور طفيف بالغربة نجحت و ببراعة فى طمسه و طمره داخلي و بدوت طبيعيا للغاية. عشرة أيام قضيتها مع فاطمة بصورة طبيعية للغاية و فى داخلي رغبة و اشتياق للعودة الى العمل، ربما كانت هي تلك اللحظات التي قضيتها مع الهانم...شيء ما بداخلي يخبرني أن هناك مفاجأت بانتظاري فى هذا الدرب المثير...

-"اهلا يا ابو السيد جيت فى وقتك كنا لسه في سيرتك..."

كلمات مختار المنوفى المفعمة بنفس النظرة الغامضة جعلتني أدرك أنى على أعتاب البداية...شيء مريب يجمع هذا الثالوث الغامض ؛ مختار المنوفى و سعد السعيد و الهانم (دينا).

-"تحت أمرك يا باشا "

هنا تدخل الباشا

-"سيد انت هتاخد العربية لوحدك و تروح أسيوط ...بس ها تتحرك بتعليمات محددة "

صمت لثوان مركزا ببصرة على وجهى

-" هانبلغك التعليمات بالمحمول هانقول لك امتي تتحرك و امتي تقف ....ها تتحرك بأوامر و هتف بأوامر...مفهوم يا سيد؟"

اكتنفنى شعور بالغموض و الرهبة....شيء ما بداخلي جعلني أشعر بخوف لم أعرف له مصدرا أو سببا.

و قد كان قبل كل كمين من كمائن الشرطة يدق هاتفي و يأتيني صوت مختار

-"انتظر هنا و ما تتحركش....."

ساعات من الانتظار و بعدها يأتي الإذن بالتحرك...

مريب جدا أن تستغرق يوما كاملا مسافرا من اسيوط الى القاهرة.

لم أتوقع أبدا أن أجد الباشا و الهانم بانتظاري في أسيوط ، عند عضو مجلس الشعب المرموق يحي الفادى،هذا الرجل سمعت عنه كثيرا و لم أكن أتخيل أن أراه.

أقاويل كثيرة ثارت حول هذا العضو، ذو نفوذ، محب لعمل الخير، ثرى، أقوال أخرى ترددت حول الرجل

-"حمد الله على السلامة يا سيد."-"

-"الله يسلمك يا هانم!

بعد لحظات من الراحة و تناول الطعام اجتمعت أنا والباشا و مضيفه عند السيارة

-"السعر كامل موجود فى شنطة العربية. افتح شنطة العربية يا سيد ."

أذهلتني المفاجأة حينما فتحت شنطة السيارة وجدتها ممتلئة بالكامل بالدولارات، لم أكن الساقية. ما أشبهنا نحن الفقراء بتلك الثيران، ندور طول اليوم لنسقي حقول الأثرياء و لا نحظى سوى بالفتات....ما أشبهنا

نحن الفقراء بحمار العنب نشقى طوال اليوم فى حمل العنب و لا ينالنا حبة عنب واحدة ...

-"الفلوس تمام."

نطقها الفادي وهو يضع اخر رزمة من الدولارات فى حقيبته الضخمة

-"الأمانة فين؟"

-"اتفضلوا معايا...."

نطقها الفادي ثم قادنا الى بدروم فسيح أسفل الفيلا حيث كان بانتظاري مفاجأة من العيار الثقيل...مقبرة فرعونية كاملة. مومياء كاملة وسليمة،أوانى فخارية مزخرفة و كأنها نقشت منذ ثوان.

تأملت هذه الأشياء و أدركت أننا شعوب ماضيها أفضل من حاضره بمليارات المرات.

-"افتح معانا التابوت يا سيد."

رعدة و ذهول سيطرا على نفسي حينما صدر لي هذا الأمر فمددت يدي معهم فى استسلام. فى داخلي شعور عظيم بالرهبة و الخوف.

رائحة غريبة غمرت المكان حينما رفعنا غطاء التابوت، لم أتمالك نفسي حينما وقعت عيناي على تلك اللفائف فسقطت مغشيا على، لم أدر كم من الوقت مر على و أنا على هذه الحالة، الا إنني حينما استيقظت تناهى الى سمعي صوت السعيد

-"كده هنحتاج العربية بتاعة معاليك يا سيادة النائب "

-"كله بحسابه يا سعد بيه..."

شيء واحد رسخ فى ذهنى، هذه الأوطان ليست للفقراء، هي فقط لأصحاب الحصانة و الثراء و النفوذ..

طالما معك حصانة فقد أمنت القانون و العقاب،

-"سيد وصل الهانم للإسكندرية.."

مأمورية جديدة تحمل فى طياتها سعار شهواني و مغامرة جديدة.

أدوات الرفاهية فى هذه الفيلا تفوق الوصف، بيني و بين نفسي تساءلت ما السبب فى اتساع الفجوة بين الأثرياء و الفقراء فى هذا الوطن.

-"سيد هتسيبني أكل وحدى؟ "

لن أعيد على مسامعكم ما حدث فى المرة السابقة الا إنني حينما استيقظت وجدتها تقف أمام المرآة لتضع اللمسات الأخيرة فى مكياجها استعداد للخروج..

-"صباحية مباركة يا عريس."

خرجت هذه الكلمات مصحوبة بضحكة غجرية مثيرة مهما كتبت لن أستطيع أن أصفها لكم إلا أن تسمعوها

-"يلا يا سيد علشان ورانا مشاوير كتير."

خلف عجلة القيادة مركزا بصرى على الطريق و تلك النسمات المنعشة تداعب شعرى الاسود الفاحم فى طريقنا الى محجر الرخام ، ما بين اللحظة و الأخرى كنت أتناول قليلا من زجاجة الماء و التي أذبت فيها ثلاث شرائط من حبوب الترامادول المخدرة ، بالتأكيد لن يخطر ببال أى رجل شرطة أن زجاجة كهذه تحتوى على كل هذا الكم من الحبوب المخدرة....

فى المحجر تحولت الهانم الى إمراءة فولاذية صلبة تأمر و تنهى و تعطى أوامر و تحاسب فى قسوة، إمراءة أخرى غير تلك الجارية المرمرية الغنوج اللدنة التي أنهكتني و دغدغت مشاعري و جسدي طوال الليل.

حتى أنا بعيدا عن الفراش مجرد سائق لا أستطيع أن أرفع عيناي فى وجهها.

أصابني شيء من الملل فقررت أن أتجول غير بعيد فى أرجاء المحجر...

-"سيد!!!!!!"

فاجأني ذلك الصوت القادم من الخلف فألتفت نحو مصدره فى دهشة انه عنتر عفيفي ،رفيق الدراسة....

جمعتنا ظروف متشابهة منذ مجيئنا الى الدنيا و حتى حصولنا على شهادة الدبلوم الفني، كلانا تربي يتيما، كلانا ذاق مرارة الفقر و اليتم و الحرمان، الا ان القدر قاده للعمل فى مجال الرخام ليصبح أحد الأثرياء البارزين فى القرية بل و على مستوى المحافظة. ملامحه لم تختلف

كثيرا عن الماضي القريب، فقط هي تلك الملابس الفخمة. لحظات من العناق و القبلات و التحية و السؤال عن الصحة و الأحوال

-"ايه اللى جابك هنا يا ابو السيد؟"

فى إيجاز قصصت عليه حكايتي ثم تبادلنا أرقام الهواتف على أمل التواصل من جديد.

مجرد أدوات بيد القدر، يجمعنا وقتما يشاء و كيفما يشاء و لأسباب و ترتيبات لا يعرفها سوى مسبب الأسباب. بيني و بين نفسي لم أكن أتخيل أن هذا اللقاء القصير سوف يترتب عليه أحداث رهيبة تغير مجرى حياتي...توالت الأحداث و المهام و مع كل مهمة كانت أرصدتي تربو و تزداد.

لا أدرى كيف أمضيت عاما من عمرى في هذا العمل بمثل هذه السرعة. تنفلت اللحظات من بين أيدينا و نحن أشبه بالسكارى...

مع انتهاء العام كانت بانتظاري مفاجأة جديدة.....

باع سعد السعيد جميع ممتلكاته و قرر الهجرة الى الخارج لأجد نفسى بلا عمل، مضطرا للعودة الى مسقط رأسي..

بالتأكيد من حصدته من أموال و من هبات و إكراميات يفوق راتب عشرات الموظفين طوال حياتهم الوظيفية.

لا تندهشوا حينما أخبركم أن دخلي في هذا العام تجاوز مليوني جنيه، فقد كانت السيدة دينا سخية و كريمة معي لأبعد الحدود و كذلك كان السعيد...

حينما عدت الى مسقط رأسي كان من السهل أن أشترى منزلا فخما مؤسسا و أن أشترى سيارة نقل للعمل عليها...

كادت الأمور أن تسير بطريقة طبيعية لولا ذلك الطارئ المؤلم....

حالة غريبة من التشنجات العصبية يعقبها إغماء فى معظم الحالات....حالة من الشرود و التوهان..و الأسوأ من ذلك هو تلك الكوابيس....هي ليست كوابيس بالمعنى الحرفي و انما هي أحلام غريبة أرى فيها الهانم بين أحضاني فى الفراش، و أصل معها الى قمة المتعة...

ترددت كثيرا على عيادات الأطباء النفسيين. تلك الأقراص المهدئة و المخدرة لم تجد، نفعا فنحن معاشر سائقي السيارات أكثر أهل الأرض تعاطيا لكافة انواع الحبوب و المخدرات بكافة أنواعها.

و الأدهى و الأقسى ما اصاب علاقتي بفاطمة. حالة من الفتور و النفور و المشاكل بلا اسباب او مبررات. و المثير للحيرة ما كان يحدث و نحن في الفراش. كنا نسمع جلبة و ضوضاء، طرقات علي الأبواب، اصوات أشبه بصوت تدحرج الاف البراميل المعدنية علي أرض اسفلتية. رياح مزمجره قوية تدفع الابواب و النوافذ.

لست أدرى لماذا غاب عن ذهني العم موسي طوال هذه الفترة...

حينما طفا الى ذهني توجهت كالمأخوذ الى داره...

مقابلته لي هذه المرة كانت مختلفة تماما عن كل المرات السابقة ؛حينما رأنى نظر الى في دهشة كأنه يرى شبحا أو عفريتا يلازمني...شعرت بوخزات مؤلمة و انتفاضة و تشنجات مع تلك الكلمات المبهمة.

كلمة واحدة استطعت تمييزها من بين كلماته الغامضة "كردهار"

كنت كلمات تكررت هذه الكلمة على مسامعي أشعر بزلزال يجتاحني و تقلصات عنيفة تعترى كل ذرة من ذرات جسدي....

قرابة النص ساعة قضاها الرجل كمن يصارع وحشا أو شبحا خفيا، بعدها هدأ كل شيء و أصاب كلانا حالة من الإرهاق و التعب، بعد أن أنهى ما كان يفعله ركز بصره على وجهى متسائلا:

-"إنت تعرضت لمومياء او مقبرة فرعونية؟"

-"ما حصلش. أنا ..أنا."

تلعثمت و ارتبكت فركز ببصره علي وجهي مكررا سؤاله من جديد

-"أنا بسألك .هل تعرضت لمومياء أو لمقبرة فرعونية ؟"

أصاب سؤله وترا في نفسي فارتبكت لتوان فتابع هو في ثبات:

-"الكلام دا حصل في أسيوط في قرية....."

انتابتني حالة من الذهول فهززت رأسي في استسلام

-"ساعة ما تعرضت للموميا‌ء لبستك جنية سفلية اسمها كردهار...بس ما تخافش أنا حصنتك كويس منها ومش ها تأذيك تانى "

بعد أن غادرته بحثت و بقوة عن أهم كتب السحر و تسخير الجان مثل شمس المعارف الكبرى ، اللؤلؤ و المرجان في تسخير ملوك الجان ، تسخير الجن .

مجموعة كبيرة من الكتب جمعتها للإبحار فى هذا البحر الهائج

الفصل الثاني

شعور بالراحة أحاطني بعد أن قرأت كثيرا عن عالم الجان. في المساء لم أجد غضاضة أو حرج حينما وضعت رأسي على الوسادة فيما مضى كان النوم عبئا ثقيلا على صدرى،عدا هذه الليلة. حينما وضعت رأسي على الوسادة تناهى الى سمعي صوت حالم أشبه بموسيقى هادئة ، حالة أشبه بالخدر اللذيذ حملتني الى عالم آخر..

شيء أشبه بأفلام الخيال العلمي..

بعد لحظات وجدتني في حجرة فاجرة الثراء، على فراشها الأسطوري تجلس أية من أيات الحسن و الجمال، لن تسعفني كل قواميس العالم لوصف حسنها و جمالها....

-"انتي مين؟"

أطلقت ضحكة صافية أصفى من ماء المطر

-"أنا حبيبتك !"

-"أنا ماليش حبيبة غير فاطمة "

هزة قوية كادت أن تخلع فؤادي من قفصه الصدري أصابتني حينما حدجتنى بتلك النظرة القاسية وبصوت كزئير الأسود هتفت

-"لولا القسم اللي قيدني بيه موسي كنت دمرتك ..."

-"عمر الحب ما يجي بالقوة ...انا قلبي ومشاعري ملك فاطمة "

بكل ما في الكون من غضب هتفت:

-"إياك تجيب سيرتها قدامى مرة تاني... انت ما تعرفش أنا ممكن اعمل فيها ايه؟ انا ممكن ابهدلها أبهدلها. ممكن أبهدلها ..فاهم ."

-"أرجوكى مالكيش دعوة بف.....بيها ....أتوسل إليكي مالكيش دعوة بيها ."

-"بشرط...انك ما تجيش سيرتها في حضوري ."

-"موافق بس عاوز أعرف انتي مين؟"

غنج صوتها و لان و أصبح أنعم من الحرير

-"قلت لك أنا حبيبتك ."

صوتها فقط يعادل الآف النساء .....

-"أنا كردهار أميرة على سبع قبائل من الجن ، اخترتك انت من بين ملايين البشر"

ما أضعفنا نحن معاشر الرجال في حضرة الحسناوات ، من النظرة الأولى تتهاوى قلاعنا و حصوننا ،

-"واقف ليه ؟ أقعد جنبي .."

قالتها مصحوبة بضحكة أشد من سكرة الويسكي ..

اعتدلت حينما جلست و اقتربت منى

-"بحبك....."

ما حدث بعد ذلك لا أستطيع أن أقصه عليكم ، الا أنى حينما استيقظت استشعرت بللا في مكان ما في ملابسي الداخلية و تحديدا في سروالي. صباحا وجدت زوجتي تبكى في ألم

-"مالك يا فاطمة ؟"

-"صداع رهيب ...الحقنى يا سيد."

هي كردهار و لا أحد غيرها يستطيع أن يفعل هذا ....لا بد أن أجد حلا لأنقذ هذه البرئية من حلبة هذا الصراع .

بالنسبة لى أصبحت الأمور عادية ، أصبحت أقود سيارتي بلا وجل...علاقتي بزوجتي أصبحت فاترة جدا .

هذه الليلة الرومانسية الحالمة كان لقائي مع معشوقتي و حبيبتي كردهار، كانت تبدو فاترة الى حد ما

-"مالك ..إيه اللي شاغلك؟"

-"مشغولة بيك ؟

-"و أنا معاكي ...'

بدا على وجهها شيء من الحزن و هى تتأمل وجهى

-"اللي بعمله دا مخالف لقوانين الجن .'

-"ازاى ؟"

-"أنا من عالم الجن و إنت من عالم الإنس ."

-"و إيه المشكلة ..بتجوز."

-"المشكلة انى أميرة على سبع قبائل من الجن ..و مجلس الجن الحاكم ها يعترض ...بيحصل ان البشر يتجوزوا من جنيات عادية و لكن الأمر مختلف بالنسبة للأميرات ،بس عموما ما تقلقش أكيد ربنا ها يحلها من عنده"

-"بتحبيني يا كردهار ؟"

هذا السؤال المباغت على إثره رفعت حاجبيها

-"لأ طبعا مش بحبك "

صعقتني إجابتها فهتفت بلا وعى

-"بتقولي إيه ؟"

فضحكت ضحكة غجرية مجلجلة

-"أنا مش بأحبك أنا بأعشقك أنا بأدوب فيك ."

-"لو بتحبيني فعلا ياريت تنفذي لى طلب بسيط ...."

-"الطلب دا بخصوص زوجتك الإنسية ...صح؟"

هززت رأسي مؤمنا و موافقا

-"صح"

-"على فكرة هي أذتني الاول و اللى بيحصل دا رد فعل طبيعي ...هي ضربتني بالليل لذلك أنا بأنتقم منها ..."

-"ضربتك ؟ ازاى ؟ مستحيل !!!"

-" احنا الجن كائنات هوائية ممكن نتشكل فى شكل بشر أو حيوانات.. فى ليلة تجسدت في شكل قطة و بدون قصد خبطت طبق فى المطبخ ، فمراتك ضربتني ضربة آلمتني من ساعتها و انا بأنتقم منها ....احمد ربنا أننا ما عملناش فيها زي اللي عملناه في قرية دلجا ."

-"و ايه اللي عملتوه في قرية دلجا؟"

-"كان فيه جنيه من قبيلتنا تجسدت في شكل قطة و اتنين اخوات قتلوها فاجتمعت قيادة الجن و اخدوا قرار بقتل الاتنين . و فعلا الجن قتلهم ."

كنت قد سمعت بهذه الحادثة من قبل ولكني لم أصدقها .

-"علي فكرة فيه حوادث كتير بتسبب أذي للجن و البشر مش بياخدوا بالهم منها ."

أصابتني سنة من الدهشة فتساءلت

-"حاجات زي إيه ؟"

-"زي السوائل السخنة اللي الناس بترميها فى الحمامات و دورات المياه ، دي بتسبب إيذاء جامد للجن."

كلماتها ذكرتني بحادثة غريبة وقعت في قريتي. حرائق غريبة ومتكررة كانت تشب في أحد المنازل . هذه الحرائق كانت تنطفئ و تخمد حينما يعلوا صوت القران الكريم في المكان .حتى بعد أن باعوا المنزل و اشتروا منزلا اخر تكررت الحرائق

-"و الحادثة اللي انت بتفكر فيها دلوقتى كان سببها إيذاء البشر للجن ."

بعد محاولات مضنية أقنعتها أن تكف عن إيذاء زوجتي ،و مع أنها قد توقفت بالفعل الا أن علاقتي بفاطمة اعتراها شيء من الفتور .

انتابني شغف جارف لاكتشاف هذا العالم الغريب. قضيت أوقات كثيرة فى قراءة كتب السحر و تحضير الجان .. عرفت الكثير و الكثير عن ملوك الجان و العمار .

و منهم عمار المكان من الجن وطرق صرفهم والعزائم الخاصة وطريقة استخدامهم

قد تتساءل من هم العمار ؟

العمار هم كل من سكن الارض من الجن سواء كان مسلما او كان قاسطا ولا يخلو بيت من العمار وهم مثل سائر الجان مختلفين في الملل والاديان فمنهم المسلم ومنهم المسيحي واليهودي وغير ذلك كثير .

وهم موزعون في كل مكان في الارض وهم ثلاث قبائل:

واحد طيار يطير في جو السماء .

وواحد يسير علي الارض ويعيش عليها ولا يستطيع الطيران وواحد يسكن باطن الارض . معلومات كثيرة قرأتها عن هذا العالم المرعب و عزائم قرأتها ...

أرجوكم أن تتجاوزوا عن تلك العزائم التي سوف أتلوها عليكم فى حكايتي فهى تحتوي على أسماء حقيقية لملوك جان ، و بالتأكيد سوف يحضروا حينما تقرأون أسماؤهم و سوف يتسببون في إيذائكم و لن يستطيع صرفهم سوى عالم روحاني متمكن ...حتي علماء الروحانيات لم يسلموا من أذي الجن و شرهم و أشهرهم علي الإطلاق هو السيد الحسيني الفلكي *[1]

هذه الكتب منحتني الجرأة أن أدعى القدرة على معالجة المس و الجان و هذا ما قادني الى مغامرة رهيبة تضاف الى تلك الفظائع التى ارتكبتها لاحقا ،فحينما نما الى علمي إصابة أحدهم بمس شيطانى في أحد النجوع القريبة ادعيت القدرة على علاج هذا المريض و يالها من مغامرة مرعبة تلك التى حدثت ..

بدراجة بخارية ثلاثية العجل (بوجه) وبعد الغروب اصحبني أهل المريض لمعاينة الحالة ،شاب فى الثانية و العشرين من العمر تنتابه

---

[1] السيد الحسيني الفلكي من أشهر المتخصصين في الروحانيات . مات فى ظروف غامضة و ادعي البعض أن الجن هو من قتله. توفي سنة ٢٠٠٣ في القاهرة.

حالة من التشنجات العصبية الشديدة ،يتساقط اللعاب و الريم من بين شفتيه في غزارة .

انها حالة من المس السفلى الواضح. بعد إطلاق البخور بدأت فى تلاوة العزيمة و الاستعانة ببعض ملوك الجن لطرد ذلك الدخيل من جسد ذلك المسكين .

أقسم لكم أن ما حدث بعد ذلك كان حقيقة لا تقبل الجدل و لا تمت للمبالغات الروائية بصلة . فجأة و علي حين غفلة ظهر قط أسود عند باب الحجرة ،بدا فى عينيه بريق مرعب غاضب ، حاول أهل المريض طرد هذا الدخيل الغامض إلا إنه لم يتحرك من مكانه ملليمتر واحد ،فجأة و بلا مقدمات اختفي ذلك القط ..

تمكنت من إجبار الجنى من الحضور و الامتثال للخدام من ملوك الجان . و تمكنت بالفعل من طرد الجنى من جسد المريض الا إني لم أتمكن من صرف ملوك الجان ....

يالها من ليلة عصيبة ،أمضيت وقتا مرهقا و طويلا فى تلاوة العزيمة الا انى لم أفلح فى صرف الخدام من ملوك الجان السفلي ،ما حدث بعد ذلك كان أمرا رهيبا ، أصوات مرعبة و مخيفة و كأن ألاف الأحجار تتساقط فوق سقف الحجرة الخرساني ، كميات من التراب و الغبار كانت تتساقط من السقف ، ليلة عصيبة بكل المعاني .

فى الصباح رأيته غاضبا على باب الحجرة

-"انت إزاى تهبب اللى هبته دا ؟"

إنه العم موسي غاضبا و قد احمرت عيناه ،كيف جاء الى هنا ؟ و من الذي أخبره بما كان؟ ارتبكت لرؤيته

-"أنا ...أنا..." .

قاطعني محتدا :

-"إنت إزاى تحضر ملوك الجان و انت ما تعرفش تصرفهم ."

لم أجد ردا مقنعا فالتزمت الصمت بينما شرع هو في تلاوة العزيمة لصرف ملوك الجان ، و قد كان

-"لولا انى استخدمت أيات الزجر كنت ها تضيع ."

بعد هذه الحادثة قررت أن أكتفي فقط بعلاقتي بكردهار و ألا أكرر ما بدر مني مرة أخرى و أن أكتفى فقط بعملي فى قيادة السيارات ...

ما كان يحدث معي كان يفوق الوصف و أنه أبعد ما يكون عن الحبكات الدرامية كما أخبرتكم ، في كثير من الأحيان حينما كان يدق هاتفي كانت كردهار تخبرني أن فلان على الهاتف يريدك في كذا و كذا ....

حينما دق هاتفي و أنا أقود سيارة النقل متوجها بها الى أحد المحاجر ، تردد صوتها فى سمعي "عنتر عفيفي بيرن عليك عاوزك فى مصلحة مهمة "

بلا تفكير ودون أن أنظر الى شاشة المحمول و ضعت الهاتف على أذني

-"أيوه يا حج عنتر إزيك ؟"

مفعما بالدهشة و محملا بسحب الاستغراب و التعجب جاءني الرد من الجانب الآخر

-"عرفت إزاى انى عنتر ؟ الرقم دا خاص و ما بيظهرش لأى حد...انت مخاوى ؟"

ضحكة قوية أطلقتها زادته توترا و وجلا

-"قلب المؤمن دليله يا حج عنتر .."

-"انا فى البلد و عاوز أقابلك ضروري ."

-"و انا كمان مشتاق عليك ، بس دلوقتى شغال فى المحجر ، بإذن الله ها أخلص شغل و نتقابل بالليل ."

لم أشغل بالى كثير بالتفكير فى سبب المقابلة فربما كان فى حاجة الى سائق أو خدمة بعينها .

فى هذا العصر الذى طغت فيه المادة على كل شيء ، ليس من الممكن أن يتصل بك أحد إلا من أجل مصلحة أو منفعة ...

بعد انتهاء العمل توجهت الى فيلا عنتر أو قل قصر عنتر ، و لمن لا يعلم فهذا القصر يقع فى مكان رائع بين الحقول على مساحة كبيرة من الأرض على أحدث طراز معماري ، عالم آخر ، مختلف تماما عن القرية يكفيك أن تعلم أن هذا القصر به حمام سباحة .

وأنا ألج الباب تردد فى نفسي سؤال "من أين لك هذا يا ابن عفيفي؟ ، و كيف وصلت إلى هذا العز و ذاك الثراء؟....فلا نامت أعين المتعلمين و المثقفين .

على مشارف أبواب قصره المنيف كان بانتظاري .

-"أهلا ..أهلا يا ابو السيد ..."

بعد هذا الترحاب القصير قادني الى مكتبه الفاره ، مكتب فخم أنيق فى حجرة فسيحة مؤثثة على أحدث طراز ، لم أدر لماذا طفا الى ذهني شكل مدرستنا القديمة المتهالكة و مكتب ناظرها ذي الجدران المتهالكة بفعل الرطوبة و النشح .

-"ألف مبروك على العربية الجديدة يا ابو السيد ."

-"الله يبارك فيك يا حج عنتر "

-"أنا عارف ان معاك رخصة قيادة درجة أولى و شهادة القيادة الآمنة و دي مؤهلات ممتازة...باختصار انت مطلوب جدا فى سوق العمل ."

-"و الله بعد ما سافر السعيد و رجعت البلد أنا و الجماعة ما دورتش على شغل تاني ."

منحنى ابتسامة ذات مغزى ثم واصل :

-"مش انت اللى تدور على شغل ، الشغل هو اللى يدور عليك يا أبو السيد."

-"شكلك جايب لى شغل ؟"

-"أنا عارف إنك أمين و كتوم و ممتاز فى السواقة و ألف رجل أعمال يتمنى شاب زيك ..."

صمت لثوان فصبرت ولم أقاطعه فتابع في جدية ..

-"أنا محتاجك فى شغل معايا و هتاخد ضعف المرتب اللى كنت بتاخده من السعيد و أكتر."

-'يعنى عازوني أسوق عربيتك ؟"

-"لأ ...عاوزك بعربيتك و هتاخد فى الشهر تلاتين ألف جنيه غير نسبة تانى على كل صفقة ناجحة ."

أمام لذة و حلاوة المال تهون المخاطر و تحلو المغامرة، لم أتساءل كثيرا عن طبيعة العمل فهو بلا شك لن يختلف كثيرا عن عملي السابق مع سعد السعيد ...

رغم حبي الشديد لزوجتي إلا أنى أحن و أشتاق ليوم من أيام العزوبية ، و ها قد حانت الفرصة فزوجتي ستقضى هذه الليلة فى ضيافة أهلها ....في داخلي حنين لفوضى العزوبية .

بعد أن خلعت ملابسي و ألقيتها فى عدم اكتراث تمددت فى فراشي مستعيدا شيئا من تلك الأيام الخوالي .

ما إن وضعت جسدي على الفراش حتى انطفأت الأنوار و انقطعت الكهرباء ....

لحظات وعادت الأنور لأجد نفسي فى هيئة مختلفة عن تلك التى كنت عليها ، و في مكان آخر مختلف تماما عن حجرتي ...

مهما كانت مهارتك في التخيل فلن تستطيع أن تتخيل ما رأيته ، صرح ممرد كأنه من زجاج ،أعمدة من بلور .

محال أن يكون هذا من صنع البشر

-"ركز معايا و سيبك من البهو."

انبهاري الشديد بالمكان لم يمنحني الفرصة لرؤية كردهار

-"أكيد أنا بأحلم !!!!"

-"مش بتحلم ."

-"انت مش بتحلم ."

-"اومال أنا فين ؟"

-"انت هنا فى بهو الاحتفالات الملكي الخاص بقبائل الجن السبعة ."

كردهار نفسها كانت تبدو كقطعة من المرمر بفستانها الأبيض و ملامحها الفاتنة .

-"أرجوك ، ركز معايا و بطل بحلقة في كل حاجة ."

-"كلى اذان مصغية ؟.اتفضلى يا سمو الأميرة ."

-"انا أقنعت أهلي بزواجنا و زفافنا هيكون الليلة ..بس فى الاول لازم تقابل أهلي ....قلت إيه ؟"

غالبني الحماس حينما سمعت كلماتها

-"موافق طبعا."

مع اخر حروف عبارتي صفقت بيديها فتمخض المكان عن أقوام على هيئة البشر فيهم رهبة و مهابة تعجز كلماتي عن وصفها ، لم أراهم يدخلون و إنما انشق عنهم رحم المكان

تمالكت نفسي حينما رأيت أحدهم يقترب مرتديا بدلة كاملة فى رفقة سيدة تفوق أجمل أميرات الأرض حسنا و جمالا

اليهما أشارت كردهار

-"والدى و والدتي ."

فى احترام رفعت يدى مصافحا الا أنهما لم يأبها لوجودي و صافحا كردهار فى جمود و دون كلمة واحدة ثم رحلا فى صمت

-" هم ليه ينظروا للبشر بدونية؟"

-"لأن ربنا كرمكم و انتو بتهينوا نفسكم ."

سخيف جدا أن تجد نفسك فى هذا الموقف أو أن يعاملك أحد بهذه الدونية

الموقف بالنسبة لي كان أشبه بالعزاء و المواساة ، و كأن قومها من الجن قد جاءوا لمواساتها بسبب ما أقدمت عليه.

لا أدرى هل أقول توالى توافد المعزين أم المهنئين ، إلا انه مع انصراف آخر الوافدين تحول الموقف و انقلب تماما ..

موسيقي رومانسية حالمة انسابت في نفسي ، لم أعرف لها مصدرا و لا عازف ، تختلف تماما عن ضجيجنا البشرى ،تحول المكان الى حديقة مبهجة لن أسرف فى وصفها.

-"بحبك."

سرى صوتها في دمائي ، هي ليست كلمات كتلك التي نسمعها من البشريات في وقت النشوة و الهيام ..

تفاصيل ما حدث بعد تندرج تحت بند سري للغاية..

حينما استيقظت صباحا شعرت بحالة غير عادية من النشاط و حب الحياة

-"صباحية مباركة يا عريس ."

إنها فاطمة عادت للتو من بيت أهلها

بادية الابتسامة و السرور

-"صباح الفل يا بطة ."

خلعت ثوب خروجها ثم ألقت بنفسها على الفراش بجواري أو قل فوقى

-"وحشتني يا سي السيد ."

محملة بكل ما في الكون من غنج و دلال نطقتها فاطمة ثم منحتني قبلة ساخنة تحمل كل معانى المودة ...من النادر أن تجد زوجة كفاطمة ...حينما أسمع حكايا نكد الزوجات من رفاقي أحمد الله على زواجي من فاطمة ....

بعد أن انتهت تلك اللحظات الحميمية المريحة توجهت بسيارتي للقيام بأول مهام عملي الجديد ...

على امتداد الطريق كانت معي كردهار لا يشعر بها و لا يرها غيري ، بعد فترة من السير في تلك الدروب الصحراوية وصلت الى المحجر

-"حمد الله ع السلامة يا اسطى سيد."

-"الله يسلمك يا حج عنتر."

لم يمنحني الفرصة للنزول من السيارة

-"خليك مكانك فى العربية و تعالى ورايا ."

قفز فى سيارته رباعية الدفع ثم قادني عبر الطرق و الدروب الصحراوية ...

بعد ساعة بالضبط وصلنا وجهتنا ...

مقبرة فرعونية كاملة تم وضع مقتنياتها فى صناديق من الفولاذ تمهيدا لنقلها و وضعها فى سيارة ضخمة من تلك المخصصة لنقل الرمال و الزلط

-"بص يا ابو السيد انت هتسيب عربيتك هنا و هتركب القلاب دا و تروح بيه عندى الفيلا ."

بالتأكيد لن يفكر أحد فى تفتيش سيارة محملة بالرمال

-"تمام يا ابو السيد ."

نطقها عنتر عند إتمام الصفقة مقدما لي حقيبة تحوى كما من الدولارات ، مبلغا ضخما لن تحصل عليه مهما اجتهدت في أرقة التعليم المضنية .....

رغم كثرة الأموال إلا أن بي حنين جارف للذرية و الولد يفوق الوصف و المقال ...

ترددنا كثيرا على عيادات الأطباء و ما من جدوى و ما من فائدة ...

كل التقارير تفيد أن كلانا بخير و قادر على الانجاب ،و مع هذا لا يحدث حمل و لا نسمع سوى تلك الجملة

-" هي مشيئة الله ."

لم أفكر فى الزواج من أخرى غير فاطمة فأنا أعشقها بجنون و ما زلنا في مقتبل العمر ..

فى كثير من الأحوال مصاب غيرك أكبر فائدة لك ؛و هذا تماما ما حدث معي ، فقد تعرض عنتر لحادث سير على إثره أصيب بكسر في عظام الساعد الأيمن

-"معلش يا سيد محتاجك تسوق عربيتي لغاية ما أفك الجبس ."

-"عيب عليك ما تقولش كده ، احنا اخوات ."

-"اطلع بينا على بيت الشيخ علام حسان ."

لم أسأله على عنوان أو موقع الشيخ علام فالصغير و الكبير يعرف من هو الشيخ علام و لكي تكتمل الصورة في أذهانكم علام حسان هو معالج روحاني ضالع و خبير فى مجال الجن و الروحانيات و فى كشف الكنوز و الآثار.

حينما ولجنا مكتبه تغيرت ملامحه حينما رأنى ،بطرف خفى لمح عنتر ما بدا على وجه حسان

-"ما تخافش يا مولانا، سيد معانا قلبا و قالبا وكمان سيد أمين و كتوم ."

-"كل دا أنا شايفه قدامى بوضوح ، بس سيد محتاج جلسة على انفراد."

لم ارتبك و لم أتلعثم بل وقفت ثابتا

-"مش كده ولا ايه يا ابو السيد؟"

نطقها علام لكي أتكلم و يري ما بداخلي

-"تحت أمرك يا مولانا."

توجه بكلامه الى عنتر

-"الصفقة دي معانا شريك جديد ؟"

-"شخص موثوق منه و لا ممكن يخون و يغرقنا ؟"

-"ما تخافش دا باشا كبير ..من جهة أمنية رفيعة ."

رغم كلامه المطمئن إلا أنى لم أشعر بالأمان نحو هذا الشريك الجديد ، كردهار أخبرتني أنه خائن .

و كأن شكوكي و هواجسي قد انتقلت الى عنتر

-"قبل أي شيء لازم نقابله و نشوف هو عاوز إيه ."

-"ما تقلقش يا عنتر ...عموما هو برضوا عاوز يقابلنا في الفيلا بتاعته بكره ."

بالطبع لن أصف لكم فيلا الباشا كي لا تصابوا بالإحباط و كي لا أبدد شعوركم بالرضا .

بين جدران فيلا الباشا و فى حجرة مكتبه فاحشة الثراء تم الاتفاق ...النصف للباشا مقابل عملية تسهيل المرور و النصف الباقي لعنتر و من معه .

بعد المقابلة بيوم واحد دق هاتفي لأكتشف أن محدثي على الطرف الآخر هو الشيخ علام حسان

-"الو ...السلام عليكم ...أهلا يا مولانا ."

-"أهلا بيك يا سيد ...كنت محتاجك ....تقدر تيجي تشرب معايا الشاي دلوقتى ..عاوزك فى أمر مهم بس يا ريت تيجي لوحدك ."

-"على فكرة هو هيكلمك عنى"

سرت أفكارها فى عقلي فى سكون فغادرت منزلي على الفور متوجها الى منزل الشيخ علام و الذى استقبلني بحفاوة

-"سيد أنا كنت عاوزك فى موضوع مهم"

-"عاوز تكلمني عن كردهار."

لم يندهش و لم تظهر على وجهة أى علامة من التعجب أو الاستغراب

-"على فكرة فيه معلومات كتير لازم تعرفها عن كردهار"

-"معلومات زى إيه ؟"

-"كردهار خدمة سفلية ."

-"خدمة إيه ؟"

-"اولا لازم تعرف ان الجن نوعين ،جن سفلى و جن علوى ،الجن السفلى جن كافر مؤذى، و الجن العلوى جن مسلم غير مؤذى ."

صمت لحظات ليري أثر كلامه على وجهى ثم تابع

-"و كردهار جنية من الجن السفلى حبتك و انت فى حالة شهوة مع الهانم دينا و لبستك لما شفت المومياء في اسيوط "

هززت رأسي موافقا فتابع مجددا

-"كردهار دي وحدها كنز رهيب ، دي ممكن تكشف لك أماكن الآثار و ممكن نستخدمها فى صرف العمار ، بس دا طبعا بشروط ."

-"بشروط؟؟شروط إيه ؟؟"

-" الجن السفلى بيحب النجاسة و بيحب الدم و بيعيش في الخرابات و أماكن النجاسة و علشان يساعدنا له شروط و متطلبات معينة ."

رغم علاقتي بكردهار إلا أنها لم تخبرني بمثل هذه المعلومات و لذا فقد تملكتني الحيرة

-" متطلبات ؟ زي إيه ؟"

التقط نفسا عميقا استعدادا لإلقاء هذا البيان الخطير ثم تابع :

-"طلباتهم كلها حرام ،دم بشرى ، أعضاء بشرية معينة ، جماجم ، و لازم يكون البخور كريه الرائحة "

حالة من البنج الكامل أحاطتني و شلت حواسي و تفكيري فلم أتكلم بكلمة واحدة

-"لذلك أنا عاوزك معايا فى جلسة الكشف ."

-"ودى هتكون امتى ؟"

-" هأبلغك قبلها مباشرة ،خليك جاهز في اى وقت .."

-" ع البركة ...إستأذن حضرتك دلوقتى .."

-"انت الليلة دى ضيفي و هانتعشي مع بعض "

مع إصراره لم أجد فكاكا فرضخت لدعوته ...

لا أدرى لماذا تذكرت طفولتي و أنا جالس علي مائدة الطعام مع الشيخ علام ، ما زالت تقطن حنايا عقلي تلك الأيام المؤلمة التعيسة حينما كانت أبسط متع الحياة حلما بعيد المنال..

-"إنس الماضي و عيش اللحظة اللى انت فيها ."

و كأن الشيخ علام قرأ ما بداخلى ،أضحكتني كلماته

-"واضح ان كلامهم عنك صحيح ."

-"مفيش دخان من غير نار يا ابو السيد"

لا أخفيكم سرا أن سخاء الرجل و كرمه زاده منى قربا و تأكدت من صدق تلك الحكمة "سادات الناس في الدنيا الأسخياء "أو ربما هو ذلك المثل الشعبي "أطعم الفم تستحى العين "

حينما دق هاتفي فى الثانية صباحا فى تلك الليلة الشاتية من شهر يناير عام 2012 كان محادثي على الطرف الاخر هو الشيخ علام

-"استعد جلسة الكشف دلوقتى هتلاقى العربية تحت بيتك "

حينما خرجت من منزلي وجدت سيارة تويتا رباعية الدفع بانتظاري و بداخلها عنتر متدثرا بثياب صوف فاخرة

-"انت اللى هتسوق لأن المهمة سرية جدا "

انطلقت بالسيارة والتي اخترقت بنا دروب الصحراء لتحملنا الى هذا القدر المحتوم .

لمن لا يعلم ،جو الصحارى و طقسها يختلف تماما عن طقس المدن و الأماكن العامرة بالبشر فهو شديد التطرف.. ،شديد البرودة ليلا فى الشتاء. انتابتني حالة من الرهبة و الخوف ،ليس فقط بسبب هذا الجو المخيف و لكن بسبب حالة الفوضى وانعدام الأمن. بعد سقطة يناير ،آسف أقصد ثورة يناير؛ فهذه الثورة كانت بمثابة الكنز للخارجين عن القانون و اللصوص ، كابوسا مرعبا على البسطاء و غير القادرين .

حينما توقفت السيارة و فتحت الباب ،لفحتني رياح الصحراء شديدة البرودة بقسوة .

-"ما تخافش رجالة الباشا مأمنين المكان كويس ."

و كأن عنتر قد قرأ ما بداخلي ..

قبل أن أخطو داخل المقبرة طافت عيناي فى أرجاء المكان ..على أضواء الكشافات رأيت حفرة واسعة كشفت سلما حجريا يؤدى الى نفق ضيق

في أخره جدار صخري هائل و على بعد أمتار من الجدار رأيت علام جالسا في سكون و أمامه موقد فخاري و كمية من البخور.

ألجمتني الرهبة لدرجة أنى لم أستطع إلقاء التحية ..

-"أقعد و ما تخافش يا سيد وانت يا عنتر انتظر بره المقبرة ."

فى صمت جلست و خرج عنتر ثم تابع علام :

-"لازم نصرف العمار علشان تقدر الارواح اللى بتخدم عز القسم الدخول الى المقبرة و تشم البخور وتلبي دعوتنا وتنفذ طلباتنا ، دلوقتى أنا هأطلق البخور و هنرش المدخل بدماء بشرية و أعضاء جنسية بشرية و هأقول العزيمة علشان نصرف العمار الأرضيين و نستدعى كردهار و قبيلها علشان تكشف لنا مدخل المقبرة ."

ما ان انتهى من عبارته حتى ظهر شخص بغيض تبدو على ملامحه القسوة و الخشونة ، كريه الرائحة ، أخذ هذا البغيض فى رش الدماء على الجدار و بعثرة الأعضاء الجنسية البشرية بطريقة معينة ...

أرجوك عزيزي القارئ أن تتجاوز عن قراءة العزيمة ففيها أسماء حقيقية لملوك جان قد يحضروا إذا ما كررت أسمائهم و قد تصاب بالأذى و المس.

بدأ علام فى تلاوة العزيمة بصوت جهوري مهيب

-"اقشاقش مهراقش اقشمقش شقمونهش نادى العالي الاعلى من فوق عرشه ان يا جبرائيل اهبط الى الارض ونادى فيها اسم اصباؤت

اصباؤت اصباؤت ، فهبط جبرائيل من السماء بعذاب قاصف فتفرقت منه الجن شرقا و غربا يا عمار هذا المكان انصرفوا الى قاع الجبل المخفوف حتى اقضى حاجتي و لا تفسدوا على عملى (يرسل عليكما شواظ من نار و نحاس فلا تنتصران) هيا هيا انصرفوا بعزة برهتيه بعز طوران برهتيه برهتيه كرير كرير تتليه تتليه طوران طوران مزجل ترقب ترقب برهش برهش غلمش غلمش خوطير خوطير قلنهود قلنهود كظهير كظهير نموشلخ نموشلخ برهيولا برهيولا بشكيلخ بشكيلخ قزمز قرمز انغلظ انغلظ قبرات قبرات غياها غياها كيدهولا كيدهولا شمخاهر شمخاهر شمخاهير شمخاهير شمهاهير شمهاهير بكهطهونيه بكهطهونيه بشارش بشارش طونش طونش شمخا باروخ شمخا باروخ .."

فجأة وعلي حين غرة رأيتها ، إنها كردهار ، كلما قرأ علام أشعر بنفضة و تشنجات تجتاحني كأعتى و أعنف الزلازل...

و كأنى أشاهد أحد أفلام الخيال العلمي المثيرة ،أشعر بأشياء تتحرك من حولي و لا أراها فقط أرى تلك الشبورة و الأتربة الناجمة عن حركتها ..و كأن ملايين الأسراب من النمل تسري فى كل أرجاء جسمي ..

بلا مقدمات رأيتهم يهبطون..

إنهم قبائل كردهار السبعة ..

حالة من الشبق و المتعة انتابتهم لمرأى الدماء البشرية و رائحة البخور الكريهة ...رقصوا رقصات جنونية من حولنا ...عرق غزير ألجمني و ألجم علام مع كل تعويذة كان يقولها ذاك الأخير..

بعد لحظات من رقصات الجان حولنا صفقت كردهار بيديها فصمت الجميع.

حالة غريبة تلك التي اعترت كردهار ،وقفت في صمت مغمضة عينيها و أخذت تتمتم بكلمات غامضة غير مفهومة ثم أشارت بحد يدها فحدث أمر رهيب ..... انشق الجدار نصفين

و تحرك من تلقاء نفسه كاشفا مدخل المقبرة بوضوح .

كان على علام تلاوة عزيمة صرف كردهار و من معها ..مجددا عاد علام لطلاسم و عبارات طرد الجن السفلى ...في لحظات اختفت كردهار و من معها ليخلو لنا الجو مع أجدادنا الأعزاء ...

أخرج علام جواله الصحراوي ضاغطا زر الاتصال بعنتر و الذى ما إن وصلته الإشارة حتى حضر فى ثوان

-"الله ينور يا مولانا...أهو كده الشغل و لا بلاش ."

قالها فى مرح ثم دخلنا الى داخل المقبرة ، فى داخلي إحساس يتنامى أننا الشعوب الوحيدة التي تمتلك ماض أجمل مئات المرات من حاضرها المزرى .

كنوز تعجز الألسنة و الأقلام عن وصفها، قوارير و صناديق خشبية و تابوت حجري به مومياء لملك أتعسه القدر بأسواء أحفاد ...

بعد أن أخرجنا محتويات المقبرة كاملة الى سطح الأرض و بعد أن انتهي الرجال من التحميل نظر علام الى ساعته فى شيء من القلق

و كأن عنتر لم يلحظ ما اعترى علام من قلق

-"اللهم ديمها ثورة و أحفظها من النظام .."

هازئا مازحا نطقها عنتر و هو يشاهد الرجال يقومون بنقل التحف و الكنوز بينما أخذ علام ينظر الى ساعته من جديد

-"ما تقلقش ...هنتحرك لما الباشا يرن ."

مع اخر حروف عنتر دق هاتفه الصحراوي

-"أيوه يا باشا كله تمام ."

أغلق عنتر هاتفه المحمول معلنا بدأ الانطلاق، و مع إعلانه بدأ شعور قوى بالقلق ينتابني بشدة

-"أنا هاركب العربية مع الشيخ علام و نمشي وراك و انت هتسوق اللورى و تمشي قدامنا."

لولا تلك الفوضى التي أحدثتها الثورة ما تمكنا من نقل هذه الكنوز عيانا بيانا فى وضح النهار .....بعد قرابة الخمسين كيلو متر حدثت مفاجأة رهيبة ...

ست سيارات مصفحة فوق كل منها مدفع رشاش قطعت علينا الطريق ...لولا مهارتي الفائقة و درايتي بفن القيادة لاصطدمت بهم ...و كأنهم على علم بهذا أيضا

فقدنا السيطرة تماما على الموقف و وقعنا فى يد هؤلاء بعد أن أطلقوا فوق رؤوسنا كمية من الطلقات كفيلة بهزيمة كتيبة كاملة .

-"دول رجالة الباشا."

همست بها كردهار في أنني فالتزمت الصمت تماما .

فى كثير من الأحيان تظاهرك بالجهل فى حد ذاته هو قمة العلم .

لم نجهد أنفسنا فى البحث عن ملامحهم خلف الأقنعة لأننا لو فعلنا هذا لكان فيه حتفنا ،

بعد أن أخذوا هواتفنا قيدوا عنتر و علام و تركوهم فى سيارتهم ثم وضعوا عصابة سوداء على عيناي

-"هتمشى باللورى على طول ...أول ما تسمع صوت طلقات تقف."

تلقيت ضربة موجعة على ظهري حينما حاولت أن أمد يدي لأرفع العصابة و جاءني صوت محدثي المجهول غاضبا كالرعد :

-"انت هتسوق وانت مغمض عينيك و احنا حواليك من كل ناحية ....فاهم و لما تسمع صوت طلق ناري هتوقف العربية ...فاهم ؟."

-"فاهم ."

من المؤلم و من الصعب أن تسير على قدميك مغمض العينين لمسافة طويلة فما بالك بقيادة مركبة بهذه الضخامة ...

حينما تحققت العلامة المتفق عليها و سمعت صوت اطلاق تمكنت من كبح جماح السيارة فتوقفت فى سلاسة بعدها جأني صوت آمر يطلب منى مغادرة السيارة دون أن أرفع العصابة من فوق عيناي ثم قيدوا يداي بطريقة ليست محكمة تماما ، فقط لإعاقتي و منعى من رفع العصابة فوق وجهى الا بعد رحيلهم بفترة .وهذا ما قد كان ، بعد نصف ساعة من رحيلهم تمكنت من تحرير نفسي تماما ....

ساعتين من السير المضنى بين مدقات و دروب الصحراء و أخيرا وصلت الى العمران...

اول ما فكرت فيه هو تناول بعض أقراص الترامادول المخدر مع كوب من القهوة ....أرجوكم لا تتعجبوا فنحن معاشر السائقين نستطيع أن نحافظ على يقظتنا لساعات بفضل هذا المخدر اللعين ....

من وجهة نظري أن الترامادول هو أعظم و أهم إنجازات ثورة يناير فقد أصبح متاحا و بغزارة رهيبة . قبيل الغروب عدت الى حيث تركت علام و عنتر ، بعد أن حررتهما ثم صحبتهما معي فى تلك السيارة الجيب الى بر الأمان ..

-"دول رجالة الباشا ."

نطقها عنتر فى غيظ مرير فهز علام رأسه مؤمنا

-"محدش غيرنا احنا و هو على علم بالعملية ."

-"محدش يتجرأ يعمل كده غيره أنا عارف أسلوبه كويس و ها أعرف إزاى أرد عليه ."

حينما لمحت عيناه الحمراوان فى مرآة السيارة أدركت كم الشر الذى يضمره و ينتويه.

لا شك أننا مقبلون على منعطف إجرامي جديد و صراع جبابره لا يقوى عليه سوى عتاة الطغاة ..

أوصلت كل منهما الى فيلته ثم عدت الى منزلي .....حينما ولجت داخل منزلي ذكرتني تلك الرائحة الشهية أنى لم أتناول أي طعام منذ خروجي من المنزل...

-"إتأخرت ليه ؟ شغلتني عليك !"

كلمات فاطمة كفيلة بدفع أي زوج ثرثار لإفراغ ما لديه من حكايا و أسرار ، إلا أنى لم أكن أبدا هذا الزوج ...

-"كان عندى سفرية بعيدة ...حطي الأكل هاموت من الجوع ."

شعوري بالتعب و الجوع لم يمنعني من ملاحظة ما اعترى فاطمة من تغير ،بدت لي صامتة كئيبة على غير عادتها ، رغم تلك الملاحظة الا أنى واصلت تناولي للطعام بنهم

-"مالك يا فاطمة؟ فيه إيه ؟"

-"إسأل نفسك ."

-"ما أنا بسأل روحي و مش راضية ترد عليا."

كلمات الرجل الحانية كفيلة بإذابة جليد الخلافات و النكد لدى أعقد النساء

-"انت اللي متغير من ناحيتي أول ما دخلت لا حضنتني و لا بوستنى زي كل مرة ."

احتويتها بين ذراعاي و منحتها قبلة حانية على جبينها

-"انتي حبيبة قلبي يا بطة ."

-" سيد .."

نطقتها فى دلال فحملتها كالفراشة الى حجرة النوم ...

ما أجمل تلك اللحظات العفوية و التي تحدث بلا تخطيط مسبق أو ترتيب ....لن أقص عليكم تفاصيل تلك الليلة و التي قضيناها حتى مطلع الشمس فى أمور نعشقها جميعا حتى النخاع ...

فى الصباح ارتميت فى فراشي و قد ارتوت كل ذرة من ذرات جسدي ، حتى كرد هار لم تراودني فى منامي هذه الليلة و كأنها قد أصابها ما أصابنا من تعب و خيبة أمل و إحباط .

لم أدر كم مر على من الوقت نائما ..

-"صباحية مباركة يا عريس ."

حينما ترتوى الأنثى تصبح حالمة رقيقة كالفراش.

ضحكات فاطمة البريئة أضفت على البيت جمالا تفتقره كثير من البيوت ...

-" هي الساعة كام دلوقتى يا بطتى ؟"

نطقتها متثأبا محملة بأطنان من الكسل و الخمول

-"الساعة الآن التاسعة مساءا بتوقيت القاهرة ."

-"ماشي يا حضرة المذيعة ."

نطقتها مصحوبة بضحكة صافية من القلب ثم فتحت هاتفي بحثا عن الوقت و عن خبر جديد.

ما إن فتحت هاتفي حتى دق فى إصرار ...قبل أن أفتح أخبرتني كردهار من هو ذلك المتصل اللحوح

-" عنتر بيرن عليك "

سرت كلمات كردهار فى نفسى فتناولت هاتفي

-"أيوه يا حج عنتر ."

-"الساعة عشرة بالزبط تكون عندي ."

في فيلا عنتر وجدته و علام فى حالة تحفز حح و غضب :

-"لازم ننتقم ...."

بحروف يتطاير منها الشرر و بعينين حمراوين كالجمر نطقها عنتر .

عند باب الحجرة رأيتها باسمة و سعيدة ، إنها كردهار تنتشي و تسعد لمرأي الغاضبين

-"ما تنساش ان الباشا شخصية أمنية رفيعة المستوى ."

-"ما تنساش ان احنا كمان لينا اتصالاتنا و معارفنا .'

-"ما تشاركنا يا سيد و لا انت مش معانا."

بكلماته هذه ألقاني علام فى هذا اليم الهائج ،فتوجهت بكلامي الى عنتر متسائلا :

-"ممكن تفهمنا انت ناوى على إيه ؟"

-"ناوى أخطف ابن الباشا."

حينما نظرت الى وجه عنتر بعد هذه العبارة شعرت أنى أرى هتلر أو دراكولا .

-"اكيد انت بتهزر ...اللى بتقوله دا مستحيل يكون حقيقي ."

نطقها علام و قد انتفض كعصفور أصابه المطر في ليل شتاء دامس السواد ...

-"ما تخافش أنا مرتب لكل حاجة ."

نظر الى علام متسائلا :

-"انت ساكت ليه يا سيد ما تشاركنا فى مصيبتنا ."

رغم رغبتي القوية فى الانتقام إلا أنى لم أحبذ مسألة الخطف فهتفت مبررا

-"الباشا ضحك علينا و مسح بكرامتنا الأرض ...بس موضوع الخطف ده صعب ."

التقط عنتر نفسا عميقا ثم بدأ فى شرح ما جعبته

-"أولا احنا التلاتة كان ممكن نموت و الباشا خدعنا و أكل عرقنا ....ثانيا انتو خايفين من إيه ؟البلد حاليا مفيهاش قانون ."

إذا ماتت الضمائر و انعدم القانون يصبح عالم البشر أقسي من حياة البراري.

خطة شيطانية محكمة عرضها عنتر علينا مشاعرنا المتلبدة بفعل المال و الملذات لم تهتز و لم تتحرك.

باستخدام باص مزيف يحمل اسم المدرسة تم اختطاف الطفل عيانا بيانا فى وضح النهار .... طفل فى التاسعة من العمر يبدو على ملابسه الثراء بينما يبدو الذبول و الشحوب على وجهة .

أظن أن إبليس مدين بتقديم الشكر لمن اخترع المخدرات و روج لها ...دموع الفزع و الرعب فى عيون الطفل لم تحرك شعره واحده فى رؤوسنا .. بعد خطف الطفل أودعناه احد المخازن المملوكة لعنتر و

المنتشرة في قلب الصحراء الغربية .ازداد وجه الطفل شحوبا و اصفرارا مما دفعني للتفكير مليا في التراجع و علي ما يبدوا أن عنتر قد لمح هذا

-"ما تخافش يا سيد .الباشا مستحيل يضحي بابنه الوحيد. دا ممكن يدفع كل فلوسه علشان الولد . "

مد يده في جيبه ثم قدم لي عده اقراص من المخدر

-"انت شكلك متوتر خد اضرب دي و انت هاترتاح ."

في عصبية و سرعة رفعت اقراص المخدر الي فمي بعدها بثوان دق هاتف عنتر و علي الطرف الآخر كان الباشا يرتعد متوسلا :

-"أبوس ايديكم الولد مريض عنده القلب خدوا فلوسي كلها...أتوسل إليكم ..."

توسلات و استعطاف حملته مكالمة هاتفية للباشا .

ضحكة قاسية أطلقها عنتر

-"مش فاهم حضرتك بتتكلم عن ايه يا باشا ؟"

-"انا متنازل عن كل فلوس العملية بس سيبوا الولد ."

بدهشة مصطنعة هتف عنتر

-"ولد إيه ؟ مش فاهم ؟"

-"بطل استعباط ابني اتخطف يا عنتر و انت عارف كويس مين اللي خطفه ."

بسخرية قذرة رد عنتر

-"أقسم بشرفك يا باشا ما أعرف مين اللى خطفه ، بس طالما هاترد حقنا فى العملية ، أوعدك إنى ها اساعدك."

زيادة فى الحيطة والحذر تم نقل الطفل الى مكان آخر ..لم تفزعنا حالة الشحوب التي اعترت وجه الطفل و لا نظرات الهلع التي سيطرت عليه ..

دفعة واحدة رفع علام كأس الويسكي الى فمه

-"انت ما بتشربش ليه يا سيد ...خايف؟"

قالها عنتر ثم رفعا كأسا إلى فمه

-"الواد تعبان يا جماعة ...خايف يحصل له حاجة ."

-"ما تخافش ...خليها على الله."

في داخلي نذير و قلق متصاعد يؤكد لى أنها بداية النهاية .

-"الخطوة الجاية هتكون ايه؟"

نطقها علام ثم أفرغ محتوى كأس الويسكى دفعة واحدة فنظر اليه عنتر ضاحكا

-"هنلاعب الباشا على نار هادية و الكورة فى ملعبنا ."

حينما بلغت مسامعي هذه الكلمات ،خرجت كلماتي معجونة بالتوتر

-"وضح كلامك يا حج عنتر و بلاش...."

قاطعني عنتر فى حده

-"إهدا شوية و سيبك من الرعب اللى انت فيه وكل الامور هتعدى على خير."

صمت مرغما فلم يعد أمامي أى خيار سوي المضي قدما بينما تابع هو:

-" لا جدوى من البكاء على اللبن المسكوب يا سيد سيد "

عند هذه النقطة كانت الويسكي قد سيطر تماما على عقليهما.

لم أجد بدا من الابحار معهما فتناولت كأسا من الويسكى علّه يطفأ شيئا من جحيم القلق بداخلي .

فى اليوم التالي حدث ما توقعناه فقد اتصل الباشا راجيا متوسلا

-"ارجوكم اتوسل اليكم تساعدوني ."

راقت تلك النبرة لعنتر

-"انت ابن حلال يا باشا انا قدرت أعرف اللى خطفوا ابنك .."

-"هم مين ؟ ..أنا مستعد أنفذ كل طلباتهم .."

-" هم مين؟ ما أقدرش اقول لك مين.اما من حيث الطلبات هم فعلا ليهم طلبات يا باشا ...بس طلباتهم حامية حبتين ."

-"مش مهم ..انا مستعد أنفذ كل طلباتهم ."

-" هم طالبين تلاتين مليون دولار ."

-"ادفع اربعين مليون دولار بس ابنى يرجع لى "

قد تتعجب حينما تسمع هذا الرقم فهو رقم مهول فى عالم البسطاء و لكنه رقم أقل من عادى فى حياة هؤلاء الحيتان...

-"جهز الفلوس بكره و انتظر عند مدخل اسيوط الصحراوي الساعة اتنين الضهر وهم هيتابعوا معاك بالمحمول ."

-"والولد؟"

-"بعد التسليم هيتصلوا بيك و يبلغوك مكانه ."

فى الوقت المحدد امتثل الباشا للتعليمات

-" على إيدك اليمين فيه طريق امشى فيه لغاية ما نرن عليك ."

بلا كلمة وحدة نفذ الباشا التعليمات فليس أمامه أى خيارات أخري ...مسافة مائة كيلو متر دق هاتفه من جديد

-" على شمالك طريق فرعى ادخل عليه."

متاهة رسمناها بإحكام ، عند منطقة معينة في قلب الصحراء و الى جوار مبنى مهجور من الطوب الجيري طلبنا منه أن يترك الحقائب و ينصرف دون أن يلتفت خلفه ، و قد كان ..

نزل الباشا من سيارته و ترك الحقائب و انصرف .

بعد رحيله و ضعنا الدولارات في أجوله من الخيش من قبيل الاحتياط فقد تكون الحقائب مزودة بأجهزة تتبع أو تصنت أو ما شابه .

بلا قانون و بلا حكومات أو أخلاق تتحول الأرض الى غابات قاسية مخيفة .

-"دلوقتى نقدر نسلمهم الولد ."

شعور الظفر البادي في كلمات عنتر لم يطفئ ذلك الشعور المتنامي بالقلق داخلي .

كان من المفترض أن تكون عملية تسليم الطفل سهلة و لكن تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن ، فما حدث حرفيا كان زلزال ،فحينما فتحنا الحجرة على الطفل تمهيدا لتسليمه وجدناه قد فارق الحياة ...لحظة ذهول و وجوم أحاطت بنا نحن الثلاثة .

رغم إجرامنا إلا أننا و لوهلة شعرنا بالندم...

"و أقبل بعضهم على بعض يتلاومون.."

بعد اللوم و التنصل و الذى وصل بنا الى حد القذف و السباب ما كان لنا إلا إن نواري سوءة هذا البريء .

بعد أن هدأ عنا الغضب تلاقينا فى الشر ثلاثة رابعهم كردهار ..

-" ها نعمل ايه فى المصيبة دى ؟"

خفيضة منكسرة هي تلك الكلمات التى أطلقها علام فأعقبتها بتنهديه قوية. لم اتمالك اعصابي فهتفت فيهم غاضبا

-"انا ما كنتش موافق علي العملية دي انتوا اللي ورطتوني."

ازداد احمرار عيني عنتر و أمسك بتلابيبي هادرا

-"طمعك هو اللي ورطك مش احنا."

دفعته في قوة فسقط أرضا فألقيت بنفسي فوقه محيطا عنقه بكلتا يداي في غلظة فسعل في الم ثم دفعني مجددا. لو استمر هذا الشجار لحظات لقتل احدنا الاخر الا ان علام تدخل في الوقت المناسب

-"بطلوا لعب العيال اللي بتهببوه دا و خلونا نشوف حل للمصيبة دي."

عندها توقفنا عن الشجار منصتين فتابع هو

-"اولا ها ندفن الجثة و بعدين نفكر ها نعمل ايه ."

لم أفكر لثانية واحدة فى حال ام الطفل و حالتها النفسية ،لأنى لو فعلت هذا لأقدمت على قتل نفسى بلا تردد .

حالة من الهلع سيطرت علينا بعد أن قمنا بدفن الطفل بأنفسنا .

-"أنا قلت لكم بلاش نخطف الولد، احنا مش قد الباشا و رجالته ."

تقاطرت كلماتي لوما و أسفا ،فنظر الى عنتر شذرا

-"دا مش وقت ملامة و تبادل الاتهامات ...لازم نفكر فى حل للورطة دي ."

-"لازم نفترق و نبعد عن بعض ، كل واحد فينا لازم يختفى في مكان غير معروف."

لم يكن من المتوقع ان يتكلم علام بمثل هذا الهدوء فى مثل هذا الوقت .

كان علينا ان نقفز من تلك السفينة الغارقة بحثا عن النجاة .دائما نحن لا نشعر بالنعمة الا بعد أن نفقدها و تضيع من أيدينا. رغم وفرة الأموال معي الا ان شعوري بالأمان أهم و أغلى من كل أموال العالم ...

الفصل الثالث

في سيارة جديدة اصطحبت زوجتي فقط الى أحد الأماكن النائية حيث كان بانتظاري منزل مؤسس فاخر في منطقة حدودية لا يعرفني فيها أحد كنت قد اشتريته تحسبا لمثل هذا اليوم العصيب ،و الفضل الاول في هذا يرجع الى كردهار..

تحتاج بعض الوقت لتعتاد على منزلك الجديد ،فالمنازل ليست أحجار أو جدران بل هي لحظاتنا ،ذكرياتنا ،مواجعنا وأفراحنا .

رغم كل شيء لم تختلف لقاءتي بكردهار كثيرا ، ما زلت أجد فيها نفس اللذة و الدفء ، بل أصبحت أعشق تلك الليالي التي تجمعني بحبيبتي كردهار

انه الاول من نوفمبر عام 2012حيث لا دولة ولا قانون و لا أعراف و لا أخلاق ....حينما يسقط الأمن تسقط الأوطان .

كل ممنوع أصبح مباح و متاح ،السلاح أصبح مع الكبير و الصغير وكذلك المخدرات.

رغم تلك المسافة النائية بيني و بين مسقط رأسي و رغم استغنائي عن كل أرقام هواتفي القديمة الا أنى ما زلت أشعر بالرعب ، خصوصا بعد معرفتي لما حدث بعد هروبي .

رغم ضياع هيبة الدولة فى تلك الفترة المهينة من تاريخ مصر الا أن الشرطة ما زالت تؤدى دورها.

أثبتت تلك الفترة أن الكثيرين لم يكن يخيفهم و يردعهم سوى سلطان القانون ،أصبح من السهل أن ترى شخصا يعتدى علي رجل شرطة فى الطريق العام .

"اختفاء طفل في ظروف غامضة ".

خبر تناقلته صفحات التواصل الاجتماعي مصحوبا بألاف الشائعات المرعبة التي نشرت حالة من الفزع و الهلع بين الناس ،يا له من سلاح هدام إذا ما وقع فى أيدي المغرضين و الخونة ..حالة من الرعب استطاعت مواقع التواصل أن تغرسها فى النفوس .

أصبحنا نخاف من كل شيء حتى شرب الماء بعد سماع تلك الشائعة المرعبة ؛غرق مركب في النيل محمل بأطنان من مادة الفوسفات السامة .أقسم لكم أنى ترددت قبل أن أفتح صنبور الماء. ما أسخفها و ما أقساها مواقع التواصل الاجتماعي .

درايتي التامة بهذه الأماكن و التي واطنتها فى أسفاري من قبل خففت من شعوري بالاغتراب ، إلا أن الموقف كان مختلف تماما بالنسبة لزوجتي فقد كانت تعيش في حالة من الخوف نجحت فى التغلب عليها بعد شهور .

زيادة فى الاحتياط لم أخبر أحد باسمي الحقيقي بل ادعيت اسما آخر ...

رغم ثقتي التي تصل الى حد اليقين أن معظم البشر خائنون يسكنهم الحقد إلا أنه كان لزاما على أن أبحث عن رفاق ممن هم على شاكلتي و ما ذلك في دنيانا بعزيز ، فما أكثر من هم على شاكلتي ...

في غضون شهور قليلة صارت لي عصبة و رفاق ، لا تتعجبوا فصاحب المال تميل إليه كل الأشياء حتى الجمادات .

كان لزاما على أن أبحث عن عمل أو نشاط أختفى خلفه في هذا المكان و قد كان .

مصنعا للمنظفات جمعت فيه عصبة من المغامرين و محبي المال ...بيني و بين نفسي لم تكن تخيفني سطوة الباشا أو رجاله ، كل ما كان يرعبني هو عودة سطوة الدولة و هيبة القانون .نحن لا نحب سوى الفوضى و انعدام الأمن ، في هذا المناخ نستطيع أن نقوم بتهريب السلاح و الآثار و تجارة الأعضاء البشرية .

هذه الفوضى تربة خصبة و صالحة لكل الأعمال المنافية للقانون .

اذا لم تغتنم هذه الفرصة فلن تنال الثراء بقية عمرك ، هذا لسان حال الخارجين عن القانون هذه الفترة .

حياتنا أشبه بمحطات الأوتوبيس في كل محطة نلتقى بأناس قد يبقى أحدهم في الوجدان و الذاكرة الي الأبد و قد نتلقى بشخص ناسف و نندم لمجرد رؤيته...

فى هذه المحطة العاصفة من حياتي التقيت بالكثير من الأنماط البشرية لم أأبه بالكثير منها عدا شخصا واحدا هو من استوقفني بشدة .

رجل دين ،نحيل الجسد قصير الى حد ما ، يرتدى نظارة طبية كنت أشاهده كثيرا على القنوات الفضائية ، لم أكن أتوقع أن أقابله أبدا و

خصوصا في هذا الوقت و ذاك المكان ،في منتصف هذه الليلة الباردة ،حالكة السواد من شهر يناير 2013 ، و فى مكتبي بمصنع المنظفات ، تعجبت كثيرا حينما طلب مقابلتي في هذا الوقت و على انفراد

-"اهلا يا مولانا ،فضيلتك كنت منور الشاشة ."

لا تتعجبوا لهذا الاحترام و ذاك التبجيل، فقد تربينا على هذا فى مجتمعاتنا ،لقد رسمت الأعراف و التقاليد صورة مقدسة لرجال الدين في أذهاننا ،رسموهم لنا و كأنهم مندوبي الألهة .

-"أهلا بيك كنت محتاجك فى مأمورية من أجل الله و من أجل الدين."

كادت أن تغالبني ضحكة قوية حينما تذكرت كميات الحبوب المخدرة التي تناولتها منذ لحظات و التي لم تؤت ثمارها بعد .

-"تحت أمرك يا مولانا اتفضل."

ركز بصره على وجهى لثوان ثم غمز بعينيه غمزة ذات مغزي قائلا:

-"أنا عارف أنك سواق متمكن من أيام ما كنت مع سعد السعيد و الحج عنتر ."

فقط هم أبناء الكار الواحد من يعرفون بعضهم البعض .ارتعدت فرائصي حينما أدركت ما يرمي إليه الشيخ ،لحظتها فقط تأكدت أن حقائق البشر تختلف تماما عما تبديه لنا الشاشات .تبدلت لهجتي تماما بعد هذا التلميح

-"طلباتك؟"

-"ما تخافش سرك فى بير و من ستر مسلما ستره الله."

يبدوا أن المخدر قد بدأ يؤتي ثماره فقد أطلقت ضحكة قوية مصحوبة بصوت يصدر من الحنجرة ينكره الجميع

-"يعنى فضيلتك سايب قناة الناس و جاي تطمني بنفسك ."

نظرة استياء قذفني بها حينما مس مسمعه الطاهر تلك الشخرة و التي أصدرتها لا إراديا

-"لأ . أنا جاي لك فى بيزنس هيوكلك الشهد ."

-" هات ما عندك يا مولانا ."

تجاهل نبرة السخرية فى صوتي ثم تابع

-"صفقة سلاح ها نعديها من رفح و انا عارف و متأكد انك خبير فى الطرق الوعرة ."

-"و المقابل ؟"

-"أى مبلغ ها تطلبه ها تاخده ،بس المهم السلاح يدخل مصر ."

اذا كانت البلازما تجري فى دماء البشر فإن عشق المغامرة هو جزء لا يتجزأ من دمائي ،بيني و بين نفسي راقت لى المغامرة

-"خلي بالك دول كدابين ، ما لهمش أمان ."

تسللت كلمات كردهار ا الى عقلي فأعدت ترتيب أوراقي من جديد....

-" الأتعاب مقدما "

قذفني بنظرة تحمل كل معاني الغضب قائلا:

-"انت مش عارف انت بتكلم مين ؟"

إذا أردت أن تعرف مكنون نفس إنسان فأغضبه ، لأن الغضب يظهر خبايا النفوس

-"انا نظامي كده فى الشغل يا مولانا ."

خرجت كلماتي حاسمة رادعة قوية فتراجع الشيخ عن موقفه

-"للدرجة دي انت مش واثق فينا ."

-"مش مسألة ثقة بس أنا نظامي كده ."

داعبت يده شعر لحيته ثم ابتسم قائلا :

-"ما تنساش ان احنا ها نتستر عليك و ها نحميك ...من ستر مسلما ..."

كان الأولى بالشيخ أن يقول من ستر مجرما .

رغم تهديده الواضح الا أنى لم أرضخ و لم أتهاون .

-"ربنا هو اللى بيستر خلقه يا مولانا ."

حينما أدرك فشل تهديداته خضع لشروطي .

-" ع البركة ."

قالها ثم غادر لثوان توجه خلالها الى سيارته ثم عاد حاملا حقيبة دبلوماسية وضعها أمامي على المكتب

-"احنا ما يهمناش الفلوس ...الخير كتير بس أهم شيء هو الطاعة العمياء ."

فتح الحقيبة ثم أدارها فى مواجهتي لتقع عيناي على مبلغ ضخم من الدولارات ،فالحقيبة ممتلئة عن بكرة أبيها برزم من الدولارات .

ركز بصره على وجهي مبتسما ليري أثر المال علي نفسي

-"عاوزك ما تخافش يا سيد احنا مسنودين جدا و زى ما انت عارف احنا معانا الحزب الحاكم ، رئيس الجمهورية نفسه صديق شخصي و أخ عزيز ."

أصابني الصمت من أثر المفاجأة فربت بيده على كتفي قائلا :

-"استعد للمهمة بكرة يا بطل ."

قالها ثم غادر و لم يمنحني حتى الفرص لوداعه الى خارج الشركة .....

حينما رجعت الى منزلي و بعد انتهاء المقابلة كنت أتوق و أتمنى لحظات من النوم و الراحة ، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، ففي المنزل كان بانتظاري فاطمة باكية فى حالة إنهيار ..

-"مالك يا بطة ؟حصل ايه ؟"

لهفتي البادية فى كلماتي لم توقف أنهار الدموع الهاطلة فوق وجنتيها

-"انا تعبت يا سيد مش قادرة استحمل..."

لو أنا رجلا آخر في مكاني و في مثل حالتي لأنفجر كالبركان ، إلا أن عشقي لفاطمة ألجم غضبي و منعني من الثورة و الانفجار .

-"انت طول اليوم سايبني و انا محبوسة هنا وحدى، لو كان معايا عيل يونسني.."

كم هي مؤلمة تلك الكلمات ، شعرت بوخزة فى قلبي حينما دقت هذه الكلمات مسامعي بشدة .. منحتها قبلة حانية على جبينها

-"بكره ربنا يعوض علينا و يرزقنا بطفل يملى حياتك ."

-"يا رب."

بكل ما فى الكون من اخلاص خرجت الكلمة من فيها ثم ألقت بنفسها بين ذراعاي ..التعامل مع النساء فن لا يجيده و لا يتقنه الكثير من الرجال ..ذابت بين يداي و تحولت إلي قطة وديعة ، لحظة التحام لا يدركها سوى ذوي الفحولة من الرجال.

شعور بالراحة و الارتواء لازمني هذا الصباح ، كردهار كان لها رأي آخر ، فقد بعثت في نفسي شعورا بالقلق تجاه هذه المهمة ...

-"المهمة سهلة و آمنة بإذن الله بس خلى بالك من كماين الجيش ."

نطقها الشيخ مصحوبة بابتسامة مطمئنة لم تؤت أكلها فقد أصابتني بالكثير من التوتر و الرهبة .....حينما صعدت الى كابينة الشاحنة العملاقة وجدتها بانتظاري ، في هيئة أنثوية أجمل ما يكون النساء ..

-"ما تخافش محدش ها يقدر يشوفني أو يسمعني غيرك ."

خرجت هذه الكلمات مصحوبة بضحكة صافية رقراقه .

-"تقدري تعرفي ايه اللي هيحصل فى المغامرة اللذيذة دى ؟"

-"لا يعلم الغيب الا الله ."

ضحكة مداعبة ودود أطلقتها حينما سري ردها فى كياني

-"أومال جنيه و أميرة على سبع قبائل من الجن و قدرات خارقة ."

-"بص يا بني أدم ....أنا ممكن و انا قاعدة معاك دلوقتى أشوف ايه اللى ها يقابلك فى الطريق ممكن أكشف لك الكنوز في باطن الأرض دا علشان احنا مخلوقات هوائية ،بس ما نقدرش نتدخل في قضاء الله و قدره و....."

بترت عبارتها على نحو مباغت بطريقة أثارت براكين من القلق في أعماقي

-"فيه قدامك كمين للجيش ."

لم تساورني أي شكوك فى صحة كلامها فأدرت مقود الشاحنة في يسر مبتعدا عن الكمين .....

كل مؤسسات الدولة قد أصابها الوهن و الانهيار عدا هذه المؤسسة القوية .

يالها من مؤسسة عنيدة!

لم أشعر بطول المسافة و هي إلي جواري ،و لم أشعر بأي تعب بسبب كمية الترامادول التي منحني إياها مولانا ..

بسبب كمائن الجيش العديدة استغرقت الرحلة وقتا أطول ، فى نهاية الرحلة و كان بانتظاري شاحنة أخري محملة بالأسلحة ،بلا تعارف أو سلام أو كلام صعدت الى الحافلة الجديدة و انطلقت عائدا من جديد ،هذه المرة كان يرافقني أربع سيارات مسلحة للحماية .

تصاعد بداخلي شعور بالقلق أكدته لي كردهار

-" خلي بالك فيه كمين سيار قدامك ."

تسلل صوتها داخلي فأصابني بالمزيد من الحيرة ، كيف لي أن أخبر هؤلاء المرافقين بما أخبرتني به كردهار ، لو أني أخبرتهم لارتابوا فى أمري ...

-"فات الأوان "

تسلل صوت كردهار الى وجداني بعدها بدت لي المخاطر واضحة وجلية ...

دورية سيارة مسلحة في انتظارنا ،

"انه يراكم هو و قبيله من حيث لا ترونهم "

لم تلتفت سيارات الحراسة المرافقة الي لتلك التحذيرات التي أطلقتها دورية حرس الحدود بل بدأت فى إطلاق النار بغزارة ، يبدوا أنهم تلقوا

تدريبا جيدا علي هذا الأمر ، إلا أن غريمهم كان أمهر ،مع كثافة النيران انقلبت السيارة الأولي ....

-"دوس فرامل ."

مع آخر حروف كردهار وجدت قدمي تضغط علي كابح السيارة بقوة ،مع قوة الكابح استدارت الشاحنة بقوة و التفت حول نفسها ، تلك الإلتفافة أحدثت عاصفة ترابية حجبتني عن الأعين لثوان ، هذه الثوان كانت بمثابة طوق النجاة ، بينما انهمك الطرفان فى القتال عدلت وضع عصا السرعات ثم ضغطت بقدمي علي دواسة الوقود فانطلقت بالشاحنة كالصاروخ تاركا سيارات الحراسة بين شقي الرحي ...

-"قوات حرس الحدود فرمت الحراسة اللى كانت معاك فرم ."

نطقتها كردهار في استلذاذ و استمتاع لم يثر دهشتي فأنا أعلم عشقها للدماء و القتل .

بعد ساعة و نصف من الفرار شعرت بالأمان ...و ما زاد شعوري بالأمان هو تلك العشة و الذى بدت لي من بعيد كنسمات رطبة في يوم شديد الحرارة..

بعد أن انتهيت من تناول عدد من الأرغفة مع طبق من الفول و نظيره من الطعمية أخرجت سيجارة من الحشيش لتكتمل أركان الغيبوبة ،و لمن لا يعلم فالحشيش هو خير رفيق لسائقي الشاحنات و النقل الثقيل ...بعد تناول الترامادول و الحشيش يصبح المرء منا حيوان

مطلق الغريزة ،بعد أن ملئت المعدة و تعاطيت المخدر ، أصبحت كالثور الهائج ،كان من الحتمي أن أجد ما أفرغ فيه شهوتي ، و قد كان ...

متسولة من أولئك المنتشرات على امتداد الطرق ،اصطحبتها الى كابينة الشاحنة ، و ما أدراكم ما كابينة الشاحنة ...مجهزة بفراش للنوم و مكان بسيط يصلح للطهي ... بعد أن أفرغت شهوتي منحتها حفنة من الجنيهات و انطلقت عائدا لتسليم الشاحنة لمولانا بعد ساعات من السفر . تحت جنح الظلام ،كان بانتظاري ..

من بعيد و مع انعكاس الضوء الباهت علي عدسات نظارته بدا لي كذئب عجوز .

-"ألف حمد لله على سلامتك يا سيد ."

امتزجت كلماته بالدهشة و عدم التصديق .

زفرة ساخطة أطلقتها متأففا

-"كان بيني و بين الموت فركة كعب "

-"انت فعلا بطل يا سيد ...انت قدمت خدمة للجماعة و للإسلام ."

قالها ثم أخرج مجموعة أشرطة من حبوب التامول المخدر تناولتها منه هازئا

-"يدوم العز يا مولانا ."

-"انا عازوك ترتاح علشان فيه مأمورية جديدة في انتظارك."

غادرته عائدا الي منزلي حيث وجدت فاطمة علي سجادة الصلاة، من الغريب أن يتزوج شخص مثلي ملاك برئ كفاطمة. رغم ما فعلته مع المتسولة إلا أنى وجدت رغبة قوية فى فاطمة، ربما كان ذلك بسبب الحشيش...

فى اليوم التالي كان بانتظاري مأمورية جديدة، سيارة دبلوماسية محملة بالأسلحة و الذخائر علي أن أوصلها الى احدي القري بمحافظة المنيا.

داهمني شيء من الوجل ،فمن الممكن أن أقع فى قبضة الباشا. و كأن مولانا قد لمح ما يجول بخاطري فقد منحني إحدى ابتسامته الماكرة قائلا:

-"ما تخافش يا سيد طول ما انت معانا، انت في أمان."

-"بس...."

-"باقول لك ما تخافش،دى عربية دبلوماسية ممنوع تفتيشها، ثانيا انت مع جماعة قوية."

لم تعجبني نبرات صوته الواثقة إلا أني قررت المغامرة و خصوصا مع وفرة المخدر التي منحنيها الشيخ.

أهم ما يميز هؤلاء أنهم يمنحون كل صنف من الناس ما يناسبه من مخدر، أنا و أمثالي أغدقوا علينا بالتامول و الترامادول و كافة أنواع المخدر أما بالنسبة للبسطاء فقد خدروهم بالخطب و الدين.

في رفقة كردهار يحلو السفر و تهون المتاعب مضت المأمورية بسلام كغيرها.

بيني و بين نفسي كنت أتمني أن يدوم هذا العهد طويلا ، ليس حبا فى هؤلاء و لا في سياستهم و لا في عهدهم ،و لكن بسبب هذه الفوضى التي تحياها مصر ..بالنسبة لي هذه الفوضى هي أفضل مناخ لتجارة المخدرات و الآثار و حتي الأعضاء البشرية و لكن تأتي الرياح بما تشتهي السفن ، لاحت فى الأفق رياح التغيير ..مظاهرات حاشدة ضد الرئيس و من معه.

قلق رهيب اجتاحني شاركتني فيه كردهار

-"شكلنا داخلين على أوقات عصيبة ."

نفثتها كردهار بداخلي فزادتني توترا أثناء تأديتي لهذه المأمورية الجديدة ، مأمورية بدت لي سهلة فى بدايتها ، توصيل شحنة من الأسلحة فى سيارة دبلوماسية شرق القاهرة في أحد ميادين مدينة نصر الشهيرة...

سارت الأمور بصورة طبيعية فى البداية إلي أن تم تسليم الشحنة و في طريق العودة و بالتحديد عند فندق سونستا لمحته و اقفا عند باب الفندق ، إنه قدري الذي فررت منه يوما ، انه الباشا والد الطفل القتيل ، تحفزت كل ذرة من ذرات جسدي حينما لمحت الرجل ، رجفة و هزة أحدثتها تلك اللحمة بين الكتف و الصدر .

لقد رأنى كما رأيته بوضوح ، بكل ما أوتيت من قوة ضغطت قدمي على دواسة الوقود فأحدثت السيارة ضجة عالية وصريرا مخيفا ، رغم هذه الضجة إلا أن تلك الجملة التي أطلقها الباشا اخترقت مسامعي بقوة و وضوح:

-" هاتوا لى الكلب دا ."

لن تعرف معنى القيادة الآمنة الا إذا شاهدت هذا المشهد .

مطاردة رهيبة قادها الباشا بنفسه فى وقت الذروة لملاحقتي فانطلقت بسيارتي كالسهم المارق تطاردني سيارة ذلك الموتور في إصرار . بالنسبة لي هي مسألة حياة أو موت و بالنسبة للباشا هي مسألة ثأر و كرامة .

كان من الممكن أن تكون هذه نهايتي لولا تلك الشاحنة العملاقة و التي ظهرت فجأة و قطعت الطريق أمام الباشا و رجاله .

لحظات كانت كافية لهروبي و اختفائي من مدى رؤيتهم و محيط إبصارهم .

-"إهداء يا سيد...ما تخافش و انت معانا."

حاول الشيخ تهدئتي رغم يقينه بسوء القادم و قتامته ، بدأت أشعر بالفزع ، خصوصا كلما فكرت فى فاطمة .

انه الثالث عشر من اغسطس عام 2013 يوما فاصلا في حياتي ، أنا لا تعنيني السياسة و لا أحب الغوص فى أوحالها .

كل ما يعنيني هو عالمي الذى أوشك علي الانهيار ....من قبيل الاحتياط أرسلت فاطمة إلي مسقط رأسها و ذويها ..أسبوع فقط بعد رحيل فاطمة قضيته في انهاء اعمالي هنا.

انهارت معنوياتي و خارت قواي حينما رأيت صورة الشيخ مكبلا بالأغلال مع آخرين علي شاشة التلفاز فى الحادي و العشرين من أغسطس من نفس العام 2013.

كان لزاما علي أن أرحل إلي مكان آخر كي لا تطالني يد الباشا ، و لكن أين ؟

كل ما أحتاجه هو منطقة نائية ، يتسم أهلها بالطيبة ، فجأة و بلا مقدمات قفز الى ذهني صهري صابر ....

يا إلهي كيف غاب عن ذهني صابر ذلك الودود ،اخو زوجتي و صديق الطفولة.رحلة شاقة و طويلة من مطروح الي الوادي الجديد لم تغمض فيها عيناي بفضل الترامادول..

شعور بالراحة غمرني حينما وصلت الى واحة الفرافرة في التاسعة من مساء اول ليالي سبتمبر و علي ذلك المقهى الشهير (مقهي) وجدت صابر بانتظاري ، حيث اصطحبني الى قرية "حطيه الشيخ مرزوق" حيث منزله و مزرعته .

طبيعة بكر عذراء لم تنل من عذريتها يد التكنولوجيا ،هدوء جميل ،بيوت متناثرة ،هو بعض ما رصدته عيناي علي امتداد الخمسين كيلومتر ما بين الفرافرة و القرية .

-" انت ها تستريح الليلة دي هنا للصبح وبكره ربك يفرجها."

قالها صابر مشيرا الي منزل مكون من طابق واحد، اجتاحني شُعُوّر بالتعب بَعْدٍ ذِلَكْ السفر الطويل مَنِ مَطِروّحَ آلَيَ الفرافرة فُلَمَ أهَتِّمَ كُثَّيرآ بتفاصيل آلَمَكْآنِ، كُلَ مَآ كْآنِ يَهَمَنِيَ هَوّ فراش مناسب أرتِّمَيَ فُوّقُهَ.

لَمَ ادر كم من الوقت مر عَّلَيَ نائما إلا أني حينما استيقظت لمحت شعاعا من الضوء متلصصا عند النافذة فتناولت هاتفي للوقوف علي حقيقة الوقت ، إنها الساعة الرابعة عصرا

-"ياااه كل دا نوم ، زي ما تكون ما نمتش من شهر ."

طالعني وجه صابر عند باب الحجرة حاملا صينية مزدحمة بأطباق الطعام .

-"قوم اتشطف و غير هدومك و تعالي نتغدا سوا."

قادني الى دورة المياه حيث اغتسلت و استبدلت ملابسي بأخري أكثر نظافة بعدها جلسنا علي الأرض لتناول الطعام .

لم تظهر أي ملامح للفزع علي وجه صابر حينما قصصت عليه كل التفاصيل .

-"من الأفضل إنك تعيش بعيد عن هنا ."

-" فين ؟"

-"بيت فى مزرعة بعيدة مدارية ."

بعدها صحبته فى سيارتي حيث دلني علي الطريق حيث ذاك البيت البعيد .

-"فيه مفاجأة حلوة فى انتظارك فى البيت ."

شيء غير يسير من الغضب اعتري كردهار حينما أدلي صابر بتصريحه ، شعرت و كأنها تغار من شيء ما...تري ما الذي يدفع كردهار للغيرة و بينها و بين فاطمة الاف الكيلومترات ؟ يا للعجب حتي نساء الجان يشعرن بالغيرة !

، بعد قرابة الساعة وصلنا الي تلك المزرعة الجميلة عالم آخر يسوده الهدوء و تفوح منه رائحة السكينة يغمر هذه الأرض حيث لا زحام لا ضوضاء و لا تلوث ولا اجرام ، بهذا أخبرتني كردهار ..

بيتان متجاوران من الطوب اللبن عادا بذاكرتي للوراء عقود قد انصرمت حيث ببيتنا القديم .

انتابني شعور بالدهشة حينما طرق صابر باب أحد البيتين ، هل هناك أحد ينتظرنا بالدار ، لم يطل تساؤلي فقد انفتح الباب ،و من خلفه هبت على وجهي نسمات منعشة ، إنها قمري الحبيب فاطمة و من خلفها أخوها سرحان و زوجته . لولا الحضور لعانقتها عناقا ملتهبا

-"فاطمة رفضت تقعد فى البلد من غيرك و صممت تجي معايا ."

كلمات سرحان كانت كافية للإجابة علي تساؤلاتي و استفساراتي ، بيني و بين نفسي شعرت أن كردهار تحترق من الغيرة ،لذا لم أتمادي فى

إظهار حقيقة مشاعري نحو فاطمة مخافة أن ينالها شيء من غضب كردهار ، بالتأكيد هي تجري مني جريان الدم بالعروق ،لذا كان من الحتمي أن أتحكم في مشاعري إلي أقصي درجة ..

"- سرحان و فاطمة وصلوا الصبح و انا اخترت لكم المزرعة دي علشان بعيدة عن العيون و أهو كمان تونسوا سرحان و مراته. "

كلمات صابر أدخلت شيئا من الطمأنينة علي صدري ، رغم تلك الليلة العائلية الدافئة إلا أن شعورا بالقلق و الاغتراب بدأ يحاصرني. حينما نال مني التوتر تناولت شريطا من الترامادول ابتلعت منه ثلاث اقراص دفعة واحدة، بعدها بلحظات انتقلت الي عالم اخر..

حالة اشبه بالغيبوبة اكتنفتني .لم أعد أشعر بأي توتر او قلق . صعدت الي سطح الدار فوجدت كردهار بانتظاري . بدت لي حورية اسطورية في ثوبها الوردي الشفاف . داعبت يدها الناعمة خصلات شعري ثم طبعت قبله خفيفة علي شفتاي ثم عانقتني و.....

حينما داعبت خلالات الشمس الاولى عيناي داهمني شعور بالتعب. القيت نفسي في الفراش خائر القوي مشتت الذهن، لم ادر كم مر علي و انا علي هذه الحالة الا ان ما ايقظني هو ذلك العطر الفواح الذي اقتحم انفي. انها فاطمة في أبهي حلل الأنوثة و الدلال

-"مشتاقه لك من هنا لأخر الدنيا."

عانقت انفاسها الحارة أذناي قبل ان تنسكب فيهما كلماتها الملتهبة

-"انتي اكتر يا بطة. وحشاني و....."

هذه الليلة بدت لى مختلفة عن كل الليالي الفائتة أمل وليد نبت و ترعرع في قلبي.

كالمعتاد و بعد انتهاء العلاقة الحميمية نامت فاطمة علي ذراعي. بدت لي أشبه بالملائكة بوجهها الملائكي الجميل. وضعت رأسها علي الوسادة ثم تناولت سيجارة أفرغت ما فيها من التبغ ثم خلطته بقطعة من الحشيش ثم كفنت ذلك المزيج في ورقة بفرة رقيقة صانعا سيجارا امتزج فيه الحشيش بالتبغ..

غيبوبة جميلة حملتني اليها تلك السيجارة التي انستني ما انا فيه فسقطت في بئر النوم السحيق.

كم هي مملة و رتيبة تلك الايام التى تلت هذا اليوم الا ان مساء السادس من اكتوبر كان يحمل لى مفاجأة من العيار الثقيل. بدت لي فاطمة و قد اعتراها شيء من الشحوب و الذبول هذه الليلة ، شيء ما اخبرني أنها ليست علي ما يرام

-"مالك يا فاطمة شكلك تعبانة؟"

خرجت كلماتي مشحونة بالتوتر و القلق

-"مش عارفة معدتي مالها! حاسة انى عاوزه أرجع و..."

لم تستطع ان تكمل عبارتها فقد أسرعت الي المرحاض لتتقيأ

-"لازم أوديكي للدكتور."

-"ما تشغلش بالك هاشرب ينسون و معدتي ها ترتاح."

علي الفور تناولت هاتفي و اتصلت بصهري صابر و الذي حضر علي الفور

-" اول ما سيد كلمني انا حجزت لك عند دكتور كويس في الفرافرة."

-"يلا بسرعة غيري هدومك علشان نروح للدكتور."

شيء غير يسير من التردد بدا علي ملامح فاطمة رغم الألم

-"بلاش تروح انت يا سيد خليك هنا "

صدق كلماتها نقل الي فؤادي مدي خوفها و حرصها علي مما زادني اصرارا و عزيمة علي اصطحابها

-"مستحيل اسيبك غير لما اطمن عليكي."

-"خليك انت هنا يا سيد هاروح معاها انا و سرحان."

كلمات صهري صابر لم تقلل شيئا من اصراري فقد خامرني شعور ان هناك أمرا جللا علي وشك الحدوث خاصة حينما لمحت ذلك التجهم الذي اعتري وجه كردهار.

مع اصراري رضخ الجميع لرغبتي و انطلقنا في سيارة صهري الي الفرافرة حيث وصلنا الي عيادة الطبيب قرابة الساعة السابعة .

بعد الفحص و الأسئلة طلب منا الطبيب عدة فحوصات و تحاليل كان أخرها اختبار الحمل .

بعد إجراء التحاليل سلمناها للطبيب و الذي تفحصها في عجلة ثم افتر ثغره عن ابتسامة مطمئنة :

-"الف مبروك يا سيد المدام حامل."

لم اصدق نفسي حينما هبت علي قلبي هذه البشري كريح الصبا.

-"بتقول ايه يا دكتور؟"

نطقتها غير مصدق ما سمعته أذناي فأجابني الطبيب في ثقة

-"بأقول الف مبروك المدام حامل "

كحبات اللؤلؤ تقاطرت دموع الفرح من عيني فاطمة. لا إراديا عانقتها عناقا دافئا ثم قبلتها دون ان انتبه لوجود أحد من حولنا.

حينما غادرنا تلك البناية التي حوت عيادة الطبيب لم انتبه لتلك الجلبة و لا ذلك الصخب القادم نحونا .انها مظاهرة هزيلة و مسيرة مغلفة بالذل و الصغارنفذها هؤلاء المخدوعون ممن أطلقوا علي أنفسهم أنصار الشرعية. لا أدري لماذا بدو لي كمجموعة من الخراف الهائمة بلا راعي .في البداية لم اهتم بالأمر الا ان وجها قاطنا في ذاكرتي ميزته بوضوح. أحد رجال الشيخ و مساعديه المقربين يستقل سيارة مكشوفة فوقها مكبرات صوت ضخمة. خلف السيارة كان العشرات يهتفون في حماس حاملين صورة المخلوع.

خامرني شعور بالشفقة مشوب بالسخرية نحو هؤلاء السذج المخدوعين..

-"يلا بسرعة يا سيد."

جذبتني فاطمة في عجلة فتوجهت الي السيارة حيث توجهنا من فورنا الي المنزل.

احتفالية عائلية جميلة فرت لحظاتها كفرار الحمر الوحشية من الأسود. وضعت رأسي علي الوسادة محاولا النوم الا اني لم استطع .بعدها بلحظات دق هاتفي فتناولته متعجبا و متسائلا تري ما الخطب و ما الذي يدفع احدهم ان يتصل بك في هذا الوقت المتأخر من الليل قبل أن ارد نظرت الي شاشة الهاتف انه صهري صابر.

قلق مريع سري في نفسي كما تسري النار في الحطب

-"مصيبة يا سيد."

بحروف لاهثة قذفني صابر بهذه الكلمات التي دمرت كياني و اعصابي تدميرا

-"حصل ايه؟"

-"فيه حد كان بيصور المسيرة و صورتك طلعت في الفيديو بوضوح علي قناة الج....."

قناة اخبارية شهيرة تلك التي ذكرها صابر في معرض كلامه، كادت مثانتي البولية ان تفرغ ما فيها من شدة الفزع أو قل انه قد حدث.

كارثة بكل المقاييس، زلزال مدمر اجتاح حياتي.

كل ما كان يغنيني هو فاطمة، لم اعرف معني الندم طوال عمري سوي هذه اللحظات..ليتني لم اقترف شيئا من تلك الآثام . تلاشت لحظات السرور من عقلي و كياني. ذعر رهيب لا يوصف بدا علي وجه صابر الذي اقتحم المكان و من خلفه زوجته و اخيه سرحان ، لحظات حملت في طياتها اقسي معاني الرعب و الفزع فهتفت في عجلة

-"لازم نسيب المكان بأقصى سرعة."

-" هنروح فين؟

كلمات فاطمة الحائرة زادتني هما و قلقا

-"اي مكان بعيد عن الوادي الجديد "

-" هانمشي كده من غير ما هدومنا و ممتلكاتنا."

تساؤل و قلق حملتهما كلمات صابر فوضعت يداي علي كتفيه مركزا ببصري علي عينيه

-"الباشا لو وصل لحد منكم ها ينتقم منه و هيعلقه علي علشان يعرف مكاني...احنا كلنا في خطر يا صابر. مفيش وقت ناخد اي حاجة معانا."

-"انا عندي حل تاني."

كلمات سرحان جذبت اليه انظار الجميع

"قول بسرعة، مفيش وقت."

نطقتها و الشرر يتطاير من حروفي و عيناي.

-"انت معروف للباشا و رجالته و وجودك معانا خطر علينا كلنا و خصوصا فاطمة علشان كده احنا نسيب صابر هنا، و انا اخد مراتي و فاطمة و نسافر اسيوط عند اخوالي في النجع، مكان غير معروف، و انت تشوف مكان تستخبي فيه لغاية ربك ما يدبرها."

رغم حزني لفراق فاطمة الا ان الفكرة بدت لي مستساغة و منطقية للغاية خصوصا ان وجودها معي سوف يعرضها لخطر شديد.

أدرت سيارتي و انطلقت علي غير هدي و لسان حالي يقول "يا ليتني مت قبل هذا و كنت نسيا منسيا."

-" هتروح علي فين؟"

لم تفلح كردهار في اخفاء شفقتها نحوي ، تلك الشفقة بدت واضحة و جلية علي حروف سؤالها فتقاطرت كلماتي أسي و حيرة

-"مش عارف."

-"ايه رأيك نروح اسوان؟"

_"ليه اسوان بالذات؟"

-"تقدر منها تهرب للسودان."

أعجبتني فكرة الهروب من مصر في حد ذاتها و لكن لم تعجبني فكرة الهروب الي السودان خاصة و أني ليس لي بها أقارب او معارف. في هذا الوقت بالذات لا أدرى لماذا قفزت الي ذهني ليبيا. و لما لا؟ و المسافة من الفرافرة الي سيوة بضعة ساعات و لي في ليبيا أقارب

وأصدقاء و سوف تلحق بي فاطمة في سهولة و يسر. شعرت بحزن جارف حينما تذكرت فاطمة. كم كنت اتمني ان اكون الي جوارها في هذه اللحظات. لا ارادیا تساقطت الدموع من عيناي.

-"يااااه للدرجة دي بتحبها و بتخاف عليها."

مفعمة بالغيرة و الشفقة و مشاعر شتي حملتها كلمات كردهار .حينها تنبهت و تذكرت غيرتها الشديدة من فاطمة لذا تمالكت شيئا من مشاعري

-"غصب عني...سامحيني يا كردهار. أقسم لك اني بحبك."

داعبت يداها و جنتاي و شعري و اقتربت بشفتيها من شفتاي في قبلة ساخنة طويلة اجبرتني علي التوقف بالسيارة لدقائق

-"بحبك يا سيد ."

-"و انا كمان يا كردهار و..."

-"اتحرك بسرعة يا سيد."

علي نحو مباغت قاطعتني كردهار في فزع و قد ابتعدت عني لتغلق نافذة السيارة المجاورة لي في عنف

-" حصل ايه؟ فيه ايه؟"

قبل ان تنطق كردهار و تخبرني بما حدث لمحت تلك العيون اللامعة و التي تطلعت الينا عبر زجاج ال سيارة الأمامي في نهم. قطيع من الذئاب

يبعد عن السيارة قرابة العشرة امتار. مفاجأة مرعبة تلت ذلك، حينما ضغطت بقدمي علي دواسة الوقود أصدرت السيارة صوتا متقطعا و توقفت عن العمل. علي ضوء النجوم الخافتة تأملت المكان من حولي ، كثبان رملية تحيط بذلك المدق المهجور . أحكمت اغلاق النوافذ و الأبواب بينما التصقت بي كردهار في هلع. بعد لحظات اقترب قائد القطيع من خلفه بقية القطيع ثم رفع رأسه الي السماء و أطلق عواء مرعبا أطلقه من بعده بقية القطيع

-"ما تخافيش."

-"انا مرعوبة...الجن بيخاف من الديابه."

لم أكن أعرف أن الجن يخاف من الذئاب بهذه الصورة المرعبة الا حينما لمحت هذا الرعب المتنامي فوق وجه كردهار .

ازداد اقتراب الذئاب و جرأتها فبعضها صعد فوق سطح السيارة و بدأ يخمش سطح السيارة بمخالبه القوية و البعض الاخر بدأ يتأملنا من خلال زجاج السيارة.

موقف عصيب و مرعب زاده سوأ فزع كردهار و رهبتها. انتابني شعور بالعجز و الرعب. أدرت مفتاح تشغيل السيارة عدة مرات بلا جدوي .باتت أي محاولة للخروج دربا من دروب المحال .يا له من سجن لعين !!

تناولت هاتفي الصحراوي باحثا عن الوقت..

انها الساعة الرابعة فجرا. أسندت رأسي الي الخلف و أغمضت عيناي. لا أدري كيف تمكنت من النوم في هذا المأزق الرهيب. ما أيقظني هو صوت تلك الشاحنة المحملة بالرمال و التي توقفت علي بعد امتار مني.

-"خير يا اسطي؟"

وجه هذا السائق حمل شيئا من الطيبة و الألفة . تأملت ساعة الهاتف لأكتشف انها الحادية عشر ظهرا ثم هتفت:

-"العربية عطلت مني بالليل ."

بعد فحص بسيط اكتشفنا العطل و أصلحناه. واصلت المسير الي جواري كردهار بادية الغضب و الضيق.

-"مش عارفه ازاي جالك نوم و سبتني مرعوبة وسط الديابه."

-"غصب عني يا حبيبة قلبي التعب و الاجهاد افقدوني الوعي و كنت متأكد ان الديابه مستحيل توصل لنا و احنا مقفلين كل الابواب و الشبابيك. "

بعد حوالي سبع ساعات من السفر الدؤوب أصبحنا علي مشارف سيوة.

غمرني شعور بالراحة حينما عانقت عيناي أشجار النخيل . رجعت بذاكرتي الي الوراء الي ايام قد ولت و انصرمت حينما كنت اعمل في احدي شركات صناعة الملح في بورسعيد. آنذاك كنت أقود شاحنة لنقل الملح من سيوة الي بورسعيد. ما زال في ذاكرتي ذلك الشاب الجريء

المغامر طلحة. لطالما قص علي حكاياته و مغامراته في عالم التهريب و المغامرة .من الجيد أن تعرف نقاط ضعف البشر .و انا اعرف نقطة ضعف طلحة جيدا .طلحة حمل وديع أمام المال ، و بحوزتي الكثير من المال . أعرف جيدا أين أجده فهو يقيم في قرية بهي الدين، تلك القرية التي يفصل بينها و بين ليبيا فقط قرابة العشرين كيلو متر. في التاسعة من مساء يوم السابع من اكتوبر استقر بنا المقام علي أطراف قرية بهي الدين و في ذلك المنزل الهادئ البعيد عن الصخب والضجيج .

الفصل الرابع

-"أزول."

تهلل وجه طلحه حينما رأنى و استقبلني بهذه الكلمة السيوية و التي تعني مرحبا. شعرت بالراحة بعد أن خطوت أول خطواتي في هذا البيت المبني من الكرشيف*[2] . بعد تناول الطعام هاجمني الاجهاد و التعب من جديد فاستلقيت علي هذا الفراش البسيط بلا حراك.. حينما استيقظت تأملت المكان من حولي بدا لي و كأني لم أنم سوي لحظات الا اني حينما نظرت الي جوالي اكتشفت انها الساعة العاشرة صباحا .

قبل الاغتسال أو حتي تناول الافطار أخرجت هاتفي و حطمت شريحة الاتصال القديمة و استبدلتها باخري جديدة من قبيل الاحتياط ثم شرعت في الاتصال بفاطمة . محادثة ملتهبة مفعمة بالشوق و الحنين . كم كنت أود لو أني بجوارها في هذه اللحظات . زفرة حارة أطلقتها بعد انتهاء

---

[2] الكرشيف هو حجر مستخرج من الارض، يتكون من الملح والرمال الناعمه المختلطه بالطين وهو حجر لا يتواجد سوي في سيوه

المكالمة . علي حين غفلة رأيتها تكاد تميز من الغيظ ، انها كردهار من شدة لهفتي و اشتياقي الي فاطمة لم انتبه إليها

-"معلش ..انا اسف جدا يا حبيبتي بس كنت مشغول عليها ..."

تنهيدة حارة أطلقتها كردهار ثم هتفت

-"يا بختها ."

شعرت بمدى الغيرة التي تعانيها كردهار فاقتربت منها هامسا :

-"و الله بحبك ."

-"كنت اتمني لو انك ليا لوحدي ."

-"أنا ملكك يا كردهار ."

-"يلا اتشطف و غير هدومك ، طلحة مجهز لك الفطار ."

بعد أن اغتسلت و استبدلت ملابسي وجدت صينية عامرة بخيرات سيوة في انتظاري . بعد أن انتهيت من الافطار قصصت عليه حكايتي و ختمتها برغبتي في الهجرة غير الشرعية الي ليبيا عندها بدا شيء من الاستياء علي وجه طلحة

-"للأسف الشديد الجيش مسيطر علي الحدود و صعب انك تعدي اليومين دول لازم تصبر شوية ."

-" ها ننتظر كتير ؟"

-"حسب التساهيل . في أول فرصة مناسبة هاتهربك بس مبدئيا مش اقل من اسبوع ."

-"الموضوع دا ها يتكلف كام ؟"

-"حسب الوسيلة ، بس التكلفة مش بتزيد عن ألفين جنيه دا في الأحوال العادية ."

-"ممكن توضح كلامك اكتر ؟"

-"الفين جنيه بالنسبة للكادحين و دا ممكن يعدي و ممكن يتقبض عليه في السكة . كمان الناس دول بنعاملهم علي قد فلوسهم . يعني بنسكنهم في مجموعات كبيرة و مش بياكلوا غير العيش الحاف

نظر إلي نظرة ذات مغزي ثم تابع

-"كله بتمنه ."

أدركت مغزاه و فهمت مرماه فطمئنته قائلا :

-"الفلوس مش مشكلة . معايا كتير و الحمد لله ".

نطقتها ثم فتحت حقيبة معي و أخرجت منها رزمة من الدولارات قدمتها لطلحة فتناولها باسما

-"انت هنا في بيتك و مطرحك يا سيد . لو احتجت اي حاجة اطلبها و ما تتكسفش ."

قالها ثم انصرف فالتفت إلي كردهار متسائلا :

-"طالما هانفضل هنا اسبوع ايه رأيك نقضيه ازاي ؟"

بشيء من الدلال أجابت

-" اممم... ايه رأي سموك نزور معبد التنبؤات؟."

-"اللي تشوفه حبيبة قلبي كردهار."

رغم روعة المناظر إلا أنها لم تطفئ نيران القلق المتأججة بداخلي ، رحابة الكون لا تسعك حينما تضيق عليك نفسك .

-" ما تخفش يا سيد."

نطقتها كردهار بينما راحت تعبث بيدها في شعري

-"أنا مش خايف أنا قلقان ."

-"خد دول و انت ها ترتاح ."

ثلاث اقراص من التامول دفعتهم لي كردهار فرفعتهم الي فمي دفعة واحدة ، بعدها بلحظات شعرت بشيء من الانفصال عن الواقع .

-"اظن انك تحسنت دلوقتي ؟"

-"اكيد يا سمو الأميرة ....ايه رأي سموك نروح علي فين ؟"

أطلقت ضحكة عجرية مدوية ثم هتفت

"لحقت بسرعة تنسي ..مش قلنا هنروح معبد التنبؤات ."

نصف ساعة فقط هو ما استغرقته رحلتنا من قرية بهي حتي وصلنا الي معبد التنبؤات حيث تنبأ الكهنة بهلاك قمبيز و جيشه بالكامل و قد كان.

طافت عيناي في أرجاء المكان ، انتابني شعور بالهيبة و الجلال .

-"باعتبارك جنية بنت عفاريت ، تقدري تتنبئي باللي ها يحصل ."

ضاقت عينيها ثم مطت شفتيها قائلة :

-"و نروح بعيد ليه تعالي نقابل الخادم المسئول عن التنبؤات ."

أخذتني سنة من الدهشة فتساءلت :

-"خادم ؟ خادم ايه ؟"

-"الخادم دا جني متمكن كان الفراعنة بيسخروه في التكهن ."

-"تقصدي تقولي أن الفراعنة كانوا بيسخروا الجن ؟"

أطلقت ضحكة ماجنة ثم هتفت :

-"اومال انت فاكر بنوا الأهرامات ازاي ؟"

-"اكيد كان عندهم تطور تكنولوجي ."

-"مفيش قطعة آثار واحدة بتأكد صحة كلامك ..لو كلامك صحيح كنتوا لقيتوا اي جهاز أو مخطوطة أو أثر بيأكد النظرية دي ."

-"سيبك من التطور التكنولوجي ..نقدر نقول إن الفراعنة كانوا ضخام الجثث و اقوياء ."

-"بص يا حبيبي شوف المومياوات و انت تعرف ..كل المومياوات مفيش فيها جثة ضخمة ..كل المومياوات حجمها عادي ."

-"مش ممكن ."

من جديد أطلقت ضحكة ماجنة أخري ثم قالت :

-"الفراعنة سخروا قبائل من الجن في بناء الاهرامات و احسبها بالعقل و المنطق ، بدون ادوات تكنولوجية و اجسامهم عادية ازاي هينقلوا احجار وزنها أطنان ."

أعياني منطقها و حجتها فقررت تغيير الموضوع :

-"سيبك من الاهرامات خلينا في موضوع الخادم ."

-"الخادم دا جني موجود في نفق سري متصل بقدس الأقداس..تعالي نقابله ."

أصابتني حالة من التردد و الوجل فقررت عدم المضي في هذا الطريق

-"مفيش داعي ..خليها وقت تاني ."

عند العودة كان طلحة بالانتظار ، مستبشرا ضاحكا كعادته:

-"يا رب تكون استمتعت في معبد التنبؤات ."

-"بالتأكيد المكان هناك رائع ."

لاحظت شيء من التردد علي وجهه فتساءلت

-"شكلك عاوز تقول حاجة ."

تردد طلحة قبل أن يجيب

-"للأسف الشديد الجيش شدد الرقابة علي الحدود و ...."

افزعتني هذه العبارة فقاطعته :

-"تقصد اني مش ها اقدر ادخل ليبيا ."

-"مش قبل نهاية أكتوبر لما الأمور تهدا ."

تنهيدة ملتهبة خرجت من صدري مرغمة

-"امرنا لله ما باليد حيلة ."

وضع طلحه يده علي كتفي مبتسما محاولا تهدئتي

-"رب ضارة نافعة ... تحضر معانا عيد السياحة و بعدها نشوف لك وسيلة نهربك بيها داخل ليبيا."

حنيني و اشتياقي لفاطمة افقدني الاحساس بروعة و جمال المكان . في داخلي شعور متنامي أن هناك خطرا ما يهدد فاطمة .

-" خايف علي ست الحسن ؟"

نفثتها كردهار في نفسي فألهبت أعصابي و زادتني هما و قلقا .

-" غصب عني يا كردهار ..نفسي في طفل يحمل اسمي ."

-"نفسك في طفل و لا خايف علي السنيورة ."

شعرت بالرعب حينما لمست ما تعانيه كردهار من شعور بالغيرة نحو فاطمة .

بيني و بين نفسي قررت أن أغرق في بحار المخدر كي لا افكر كثيرا في فاطمة و حتي لا أوغر صدر كردهار أكثر من ذلك . بلا تردد أفرغت ثلاث حبات من التامول في جوفي دفعة واحدة بعدها بدقائق وجدت نفسي في عالم اخر .. عالم غريب من الغيبوبة و اللاشعور نقلتني إليه حبات التامول و لكي تكتمل أركان الغيبوبة أخرجت سيجارة من الحشيش اشعلتها في استلذاذ.

فوق سحب الدخان المتصاعد من سيجارتي رأيتها ترقص في دلال ...انها كردهار في حالة من النشوي . موسيقي هادئة حالمة سرت في دمائي معها بدأت أتمايل في حالة من الخدر و السكر .

-"حبيبي ..،"

أنفاسها الدافئة داعبت أذني فأشعلت براكين الشهوة بداخلي

-"بحبك يا كردهار يا اجمل بنات الجان ."

اقتربت بشفتي لأطبع قبلة ملتهبة علي عنقها فابتعدت عني في دلال

-"انت بتحب فاطمة مش بتحب كردهار ."

-"أنا بأحب كردهار ..أنا باعشق كردهار ."

بشيء من الدلال هتفت

-"اوعي كده ..ابعد عني ، انت حبيبتك فاطمة."

-"فاطمة دي بشرية و انتي أميرة من الجن ."

جذبتها نحوي في ود ثم لثمت شفتيها في قبلة طويلة بعدها ذابت بين يداي كقطعة سكر ..ما حدث بعد ذلك لن أقصه عليكم بل سأترك لكم أن تتخيلوه .

مخطئ من ظن أن المال لا يحقق السعادة فهو و إن لم يحقق السعادة فهو كفيل بتوفير ادوات الراحة بين يديك ، و هذا ما قد كان . في اليوم التالي وجدت بانتظاري سيارة رباعية الدفع مزودة بكافة ادوات الرفاهية .

-"تحب نروح فين يا سي السيد ."

قالتها كردهار في دلال وهي تفتح باب السيارة

-"ايه رأي سمو الأميرة ؟ تحب نروح فين ؟"

-"أنا باقول نروح عين [3] جوبا."

---

[3] عين جوبا أو عين الشمس أو عين كليوباترا من أهم عيون المياه العذبة في سيوة

اختيار كردهار للمكان كان موفق تماما . بمجرد أن وصلنا الي ذلك النبع الرائع تغيرت حالتي تماما و شعرت بحالة من الهدوء و السكينة . فجأة و علي حين غفلة تغيرت ملامح كردهار و بدا عليها شيء من الانزعاج

-"أنا بأقول نمشي من هنا بسرعة يا سيد ."

-"ليه ؟ ايه اللي هيحصل ؟"

-"عربيات شرطة جايه في السكة ."

غادرت العين مسرعا ممسكا بملابسي في يدى ،قفزت في السيارة و ما أن تحركت حتي لمحت في مرآة السيارة ثلاث سيارات للشرطة تقترب. ضغطت علي دواسة الوقود في شيء من العصبية.

-"اهدا ما تخافش . هم مش جايين علشانك ."

نطقتها كردهار مصحوبة بضحكة من ضحكاتها المثيرة

-"اومال جايين علشان مين ؟"

-"علشان يأمنوا فوج بلجيكي ".

فجأة و بلا مقدمات أطلقت ضحكة مدوية أثارت فضول كردهار

-"بتضحك ليه ؟ "

-"يا ريتني كنت بلجيكي ."

حينما عدنا الي المنزل كان أشعة الشمس تستعد للرحيل و كان علي أن أقدم المزيد من المال الي طلحة فأخرجت هاتفي متصلا به فحضر علي الفور

-"أنا عارف حجم المخاطرة التي انت متحملها بسبب ..."

قاطعني طلحة

-"عيب عليك ما تقولش كده يا سيد ."

-"ارجوك تقبل مني ده "

مظروفا اخر محشو بالدولارات مددته إليه فتناوله بلا تردد باسما

-"يدوم العز يا ابو السيد"

تلاشي المظروف و اختفي بعد أن دفنه في طيات ملابسه .

-"بإذن الله هتدخل الأراضي الليبية في أول نوفمبر ' أنا رتبت لك كل حاجة ، عموما هي فرصة سعيدة علشان تحضر معانا عيد السياحة ."*[4]

تجهم وجه كردهار بعد أن نطق طلحة هذه الكلمة . لم أتساءل عن سبب تجهمها و لا ذلك الاكتئاب الذي اعتراها . حينما حان وقت الاحتفال بهذا العيد لمحت اعياءا و عصبية لم أراهما علي كردهار من قبل .

---

4 عيد السياحة أحد الاعياد الدينية في سيوة حيث يحتفل الأهالي بالشيخ محمد محمد مدني

-"مالك ؟ فيه ايه ؟"

-"تعبانة مش ها اقدر اروح معاك ."

للمرة الأولي ترفض كردهار صحبتي ، لابد أن الأمر جلل و خطير

-"ممكن اعرف ليه مش عاوزه تروحي ؟"

-"لما تروح هناك ها تعرف ."

تركتها بعد أن اجتهدت في تغيير ملامحي و لا أخفيكم سرا أنها ساعدتني كثيرا في هذا الأمر . تنكر متقن و بديع لدرجة اني لم أصدق عيناي حينما نظرت إلي المرآة . بدوت كسائح اشقر الشعر اخضر العينين . و لكي لا يشك أحد في امري نقلتي طلحة الي سفح جبل الدكرور .

-"اهلا بيك في جبل المحبة و التسامح ."

هاشا باشا نطقها طلحة ثم استمر شارحا :

-"كل سنة بيجتمع اهل سيوة في نفس المكان و يتصافوا و يتصالحوا و يدبحوا الدبايح و يعملوا حلقات ذكر و تسبيح بتستمر لغاية الفجر ."

قبل أن يواصل طلحه شرحه اخترقت انفي زخات من الدخان فصوبت بصري نحو مصدرها . انها اخشاب جافه مشتعلة تحت اوان ضخمة تحتوي علي اللحوم و الطبيخ

-"دي عادة سيوية جميلة كل بيت بيساهم في النفقات و بيشتروا العجول و يدبحوها يوم الاحتفال و زي ما انت شايف بيطبخوها في جو من البهجة و السرور."

بعد أن تم توزيع الطعام علي جميع حاولت أن أمد يدي للطعام إلا أن طلحة استوقفني بلطف و ابتسامة

-"اصبر لما يصدر الاذن ."

بعدها بلحظات تناهي الي سمعي صوت جهوري

-"بسم الله."

امتدت الأيدي صوب الطعام في رضا و انشراح .

بعد تناول الطعام نظر طلحه الي ساعته في شيء من القلق

-" هاسيب لك العربية و امشي ..خليك انت هنا براحتك."

قالها ثم انصرف و تركني وحيدا .

كم كنت اتمني لو ان فاطمة معي هذه اللحظات . حينما هزني الوجد و اجتاحني الشوق الي فاطمة أخرجت عبوة من التامول رفعت منها ثلاث حبات الي فمي .لا ادري كيف حل المساء بهذه السرعة و لا اين ذهب طلحة . علي ضوء القمر البديع رأيتهم كالملائكة . رجال في ثياب بيضاء تشع منها رائحة الطهر و قد اصطفوا في حلقة ذكر و قد خرج من فيهم لفظ الجلالة مفعما بالإجلال و التوقير . من بعيد رأيتها تكاد تميز من الغيظ . انها كردهار و قد أحنقها و أغضبها منظر هؤلاء

الذاكرين . في كل مرة يتفوه هؤلاء بلفظ الجلالة كنت أراها توشك أن تحترق . من بعيد بدت لي و كأنها تستنجد و تستغيث .

في عجلة غادرت حلقات الذكر و ابتعدت عن جبل الدكرور متوجها صوب كردهار .

-"الحقني يا سيد هاموت ."

-"اعمل ايه فهميني ؟"

-"نسيب المكان دا بسرعة."

لم أتوانى ثانية واحدة في تحقيق رغبتها و انطلقت بها حيث ترك طلحة السيارة .بعد أن ابتعدنا عن المكان تحسنت حالة كردهار و اعتدل مزاجها .

-"أهون عليك يا سيد تسيبني الوقت دا كله ."

-"انا اسف يا كردهار الحبوب المخدرة توهتني . سامحيني ."

-"يا ترى الحبوب المنومة قدرت تنسيك فاطمة ولا ما تقدرش تنسيك فاطمة حبيبة القلب ."

-"فاطمة مين ؟ انتي حبيبة قلبي . انتي ست الاميرات ."

كلمات الرجل الحانية كفيلة بإذابة جبال القسوة و العناد في قلوب النساء . بشيء من الدلال هتفت كردهار

-"اوعي كده روح لفاطمة يا بتاع فاطمة ."

-"فاطمة مين و أنا معايا القمر."

التقت شفتانا في قبلة ساخنة ملتهبة استمرت لدقائق .

-"عندي ليك مفاجأة مذهلة ."

سحبتني كردهار من يدى الي خارج السيارة . نسمات الفجر الوليدة داعبت وجهي في حنان .

-"رايحه علي فين يا كردهار ؟"

قاومتها فتوقفت قائلة :

-"عندي لك اكتشاف خطير ."

استجبت لكردهار متأملا ذلك الجبل المخروطي و الذي لا يتجاوز ارتفاعه خمسون مترا . بدا لي هذا الجبل من بعيد كخلية نحل . انه جبل الموتى*[5] .

منظر مذهل كان بانتظاري حينما وصلنا الي قمة الجبل .آلاف المقابر الفرعونية منحوتة بإتقان في قمة الجبل . لفت انتباهي بشدة تلك المقبرة الرائعة .

-"دي مقبرة سي امون ."

---

[5] جبل مخروطي الشكل يحتوي آلاف المقابر الفرعونية و يعتبر من أهم المعالم السياحية في سيوة

نطقتها كردهار و هي تشير الي تلك الرسوم الرائعة التي زخرت بها هذه المقبرة . بعد جولة قصيرة في هذه المقبرة صحبتني كردهار الي أخرى

-"دي مقبرة ميسو ايزيس ."

شعور بالانبهار يلازمني في كل مرة اطأ فيها تلك الأماكن .تأملت كردهار أحد الممرات ثم أشارت :

-" هنا فيه سر خطير و اكتشاف مثير ."

لا أدري كيف حولت كردهار عتمة هذه المقبرة الي هذا الضوء الحالم .

تأملت الرسوم الرائعة التي غطت الجدران

-"سر ايه و اكتشاف ايه ؟"

نطقتها مستغربا و متسائلا فالمكان مكتشف و خاضع لرقابة الدولة .

-"السر ورا دا !!"

قالتها كردهار و هي تشير الي ردهة مغلقة لا يتجاوز طولها مترا واحد. لمعت عيناي حينما أدركت فحوي كلام كردهار بينما تابعت هي :

-" هنا فيه مقبرة رائعة للقزم الحكيم خيش هط."

أشارت بيدها في الهواء فتحرك الجدار كاشفا خلفة مقبرة من اروع المقابر الفرعونية.

انتابتني نشوة غريبة أنستني ما أنا فيه .جدران المقبرة سليمة لم تمسها يد من قبل .محتويات المقبرة كاملة . المومياء سليمة بكامل محتوياتها .بحركة من يدها ارتفع غطاء التابوت الحجري الضخم . تناقض ظاهر ما بين حجم التابوت و بين قاطنه .بين حنايا التابوت كان يرقد قزم قصير متدثرا بكفن من الكتان . حينما فكرت في إماطة الكفن عن وجهه أشارت كردهار بيدها أفقيا فانزاح الغطاء عن وجه المومياء . جبهته العريضة توحي بدهائه و حنكته .

-"ايه رأيك يا حبيبي ؟"

-"دا كشف مذهل ."

بطريقة عكسية مرت بيدها فوق المومياء فعاد الغطاء كما كان ،ثم أشارت إلي الغطاء الحجري فعاد الغطاء الحجري الي مكانه فوق التابوت .

-"الشمس قربت تطلع أنا بأقول نرجع دلوقتى."

خرجت من المقبرة و كأني أشاهد أحد أفلام الخيال العلمي المثيرة بعد أن أشارت كردهار بيدها فعاد الجدار كما كان .

نظرة أخيرة ألقيتها علي جبل الموتى قبل أن اركب السيارة مغادرا .

حينما وصلنا الي المنزل كانت الشمس قد بدأت في نشر أشعتها علي سطح الأرض. تمددت علي ذلك الحصير اليدوي و قد عقدت يداي تحت رأسي مفكرا .حيرة جديدة أضافتها أحداث الليلة الماضية الي ما أنا

فيه . ماذا عساي أن أفعل ؟ هل ابحث عمن يشاركني في المغامرة الجديدة و نسرق مقبرة القزم الحكيم ؟ الأمر محفوف بتلال من المخاطر . و ماذا عن الهروب الي ليبيا ؟ و ماذا عن فاطمة و جنينها المأمول ، حتي هذا الجنين بدا لي مصيره غامض و مخيف . لو أني وقعت في قبضة الباشا فمصيره الحتمي هو اليتم . و لو أني تمكنت من الهروب الي ليبيا ثم تبعتني أمه فمصيره الحتمي هو الاغتراب .لم تطل تساؤلاتي كثيرا فقد غلبني سلطان النوم و سقطت في بحاره السحيقة . لم أدر كم مر علي نائما الا اني حينما استيقظت كان ضوء النهار قد غادر الأرض و حل محله هدوء المساء .

-"صح النوم يا رجال ."

تلك الكلمات السيوية المميزة التي خرجت من بين شفتي طلحة ساعدتني علي استعادة شيئا من وعيي و يقظتي .

-"صح بدنك يا طلحة ."

-"عندي ليك اخبار سارة يا سيد ."

-"بخصوص عبور الأراضي الليبية ."

سنة من الدهشة أصابت طلحة فهتف متسائلا

-"عرفت ازاي ؟"

واثقة و قوية هي تلك الضحكة التي أطلقتها مجيبا

-"قلب المؤمن دليله ."

مط شفتيه ثم واصل :

-"بعد يومين بالزبط هتدخل الأراضي الليبية ."

راودتني نفسي أن اقص علي طلحة ما رأيته بالأمس الا اني غادرت المكان متوجها إلي المرحاض لإفراغ مثانتي التي أوشكت علي الانفجار. بعد أن لبيت نداء الطبيعة و اغتسلت وجدت في انتظاري مائدة عامرة بخيرات سيوة

-"اتفضل بسم الله ."

للمرة الأولي جلس طلحة معي ليشاركني مائدة الطعام .

-"شكلك مشغول ..حاسس ان فيه حاجة شاغلاك يا سيد ...خايف ؟"

غلبتني طبيعة المغامر فصارحت طلحة بأمر مقبرة القزم الحكيم فاتسعت عيناه في دهشة. لم أخبره بمكانها و لا بتفاصيل ما رأيته بالأمس .فقط أخبرته أن هناك مقبرة .

-"انت متأكد ؟"

-" أنا معايا خدمة سفلية و متأكد تمام التأكد ."

-"علي عمق كام ؟"

-"شوف الاول هاتصرفها ازاي و بعد كده كلها أمور سهلة ."

-"هاشوف و ارد عليك الليلة دي."

نطقها طلحة ثم تركني و انطلق مغادرا. انتابتني حالة من الحيرة و التردد و الخوف . تدفقت علامات الاستفهام في رأسي كالطوفان .

ماذا لو تعرضنا للخيانة مجددا و فشلت العملية و ما هذا منا ببعيد . وماذا لو نجحت الصفقة؟

و ماذا لو وقعت في قبضة الباشا ؟

أرهقتني الفرضيات فلم أجد غير صوت فاطمة ملجأ لي و ملاذا .تناولت هاتفي متصلا بفاطمة،

بعدها بثوان تسلل الي قلبي و وجداني صوت فاطمة الحان :

-" ازيك يا سيد مشتاقه لك من هنا لآخر الدنيا ."

-"بطة حبيبة قلبي . اخبارك و اخبار الجنين ."

-"احنا بخير .المهم انت اخبارك ايه ؟ عديت ليبيا و لا لسه ؟"

-"لسه .كام يوم بإذن الله هادخل ليبيا و ابعت لك ."

طالت المكالمة و امتدت لدرجة اني لم انتبه لتلك الحالة التي اعترت كردهار .تنهيدة حارة أطلقتها عقب انتهاء المكالمة .

-"يااااه للدرجة دي مغرم ولهان ."

مفعمة بكل ما في الكون من حقد و غيرة نفثتها كردهار .بدت لي غيرة كردهار كبركان مستعر مما فجر في داخلي حمما من القلق و الخوف

-"بتغيري منها يا كردهار ."

نجحت في طمر قلقي و مخاوفي صابغا هذه الجملة بشيء من المرح فردت هي مستنكرة :

-"أنا أغير من دي ؟ ؟ مستحيل ...أنا بس مستغربة ازاي حد تعشقه اميرة من اميرات الجان و في الاخر يعشق إنسية مهما كان جمالها ."

صمتت لثوان ثم تابعت :

-"و لا يمكن بتحبها علشان ....."

أتبعت صمتها بصمت جديد قطعته متسائلا :

-"علشان ايه ؟"

-"علشان الولد اللي نفسك فيه."

تنهيدة حزينة انطلقت من صدري :

-"ولد ايه و بنت ايه ؟ أنا إنسان مغامر و مطارد ،مهدد بالموت في كل لحظة و نسلي مكتوب عليه اليتم و الحرمان ."

اقتربت مني لتواسيني :

-"أنا أسفة يا سيد قلبت عليك المواجع ."

-"لولا المخدرات كان زماني ميت من القهر و الحسرة."

شعرت بما يعتريني فسعت جاهدة لتغيير مجري الحديث :

-"بمناسبة المخدرات طلحة ها يجيب حاجة مفتخرة ."

جذبتني كلماتها فتسألت مندهشا :

-"حاجة مفتخرة ! حاجة إيه ؟"

-"إزازة شامبانيا ها تخلي مزاجك عجب ."

لم تكد تنتهي من عبارتها حتي تعالي صوت طلحة مناديا

-" افتح الباب يا سيد جايب لك معايا هدية ها تعجبك."

تماما مثلما قالت كردهار حضر طلحة حاملا معه كيسا من البلاستيك يحوي في جوفه ذلك الكنز السمين .

-"حاجة ها تعدل دماغك !"

غمز بإحدى عينيه بعد أن نطقها ثم ناولني الزجاجة و انصرف .

-"ليلتك فل يا سي السيد ."

مصحوبة بضحكة خليعة أطلقتها كردهار ثم طرقعت بإصبعيها الوسطى و الإبهام فعم المكان موسيقي شرقية مثيرة هيجت كل خلجة من خلجاتي . فجأة و علي حين غرة تحول المكان الي صالة رقص شرقي (كباريه) و أمام عيناي وجدتها في لباس رقص شرقي فاتن ترقص و تتمايل في نشوة .مضت الليلة و انقضت كغيرها من ليالي العمر ، حينما استيقظت طالعني وجه طلحه حاملا صينية الطعام ،بفطنة البدوي لمح طلحة شيئا من أثار ليلتي مع كردهار فهتف مازحا :

-"صباحية مباركة يا عريس ."

-"صباح الخير يا طلحة . هي الساعة كام دلوقتي ؟ "

-"الساعة دلوقتي أربعة العصر ."

بلا استئذان تركته كي اجدد شيئا من طاقتي و نشاطي ببعض الماء

-"عندي ليك اخبار مثيرة هاتعجبك ."

وضعت تلك الفوطة بعد أن مسحت وجهي قائلا:

-"اكيد لقيت حد يشتري المقبرة ."

صمت لثوان مركزا بعينيه علي وجهي و كأنه سيلقي قنبلة شديدة الانفجار :

-"حوت من الحيتان الجامدة يقدر يصرف الهرم و ابو الهول . اخوه دبلوماسي من العيار المخيف هو..."

اسما ذا ثقل و اعتبار في الحياة السياسية . لم تراودني يوما ذرة شك فى وطنية مثل هذه الأسماء . تجاوزت دهشتي و حيرتي ثم تساءلت

-"قدامك شيخ امين علشان يحضر لنا الجن السفلي ."

-"ما تحملش هم كله متوفر .."

-"هنبدأ امتي ؟"

-"بعد يومين بالزبط . بس الاول عازوك تقابل الشيخ علي . الروحاني اللي هيعزم و يسخر الجن ."

-"و دا هاقابله امتي ؟ "

-" ها نروح نقابله الليلة دي في ذ اخر السهرة .اسيبك دلوقتي تجهز نفسك و تستعد للمقابلة ."

انصرف طلحة تاركا إياي في لجة من الحيرة و الأفكار

-"خد دول علشان تعدل مزاجك ."

بلا تردد جرعت اقراص التامول التي ناولتني إياها كردهار دفعة واحدة بلا ماء ، بعدها انتقلت الي عالم اخر .عالم الشجاعة و القدرة علي اتخاذ القرار . انقشعت سحب الغيبوبة دماغي و حل محلها يقظة و نشاط .

عند منتصف الليل حضر طلحة ليصحبني للقاء الشيخ علي .كم غير يسير من السرور بدا علي وجه كردهار لدرجة أنها التصقت بي في السيارة .كم هي منعشة نسمات الليل في سيوة . يا ليتني كنت سيويا .

ربع ساعة فقط هو ما استغرقته رحلتنا من دار طلحة الي دار الشيخ علي .حينما وصلنا ازدادت بهجة كردهار و سرورها و ازداد التصاقها بي

-"السلام عليكم يا مولانا ."

علي أعتاب الدار نطقها طلحة حينما فتح الشيخ باب الدار .أبيض البشرة ، يميل الي البدانة ،بدا لي و كأنه في العقد الرابع من العمر . شيء ما

جعلني أشعر بعدم الراحة تجاهه. اجتزنا ردهة الدار الفسيحة لندخل خلف الراجل الي حجرة مكتبة المربية . مكتبة حوت انواع شتي من الكتب و المخطوطات و العظام و الجماجم و البخور .

-"دا سيد اللي كلمتك عنه يا مولانا ."

علي إثر هذه الجملة صوب الشيخ عيناه نحوي .

-"اهلا يا سيد وجودك ها يكون مفيد جدا في نجاح العملية ."

حينما نطقها الشيخ أدركت أنه ضالع و خبير في عالم الروحانيات فأشرت بيدي الي السماء :

-"التساهيل علي الله يا مولانا ."

-"بصوا يا جماعة في الاول لازم نحط النقط علي الحروف ... أحنا نصيبنا التلت و الباقي هيكون من نصيب الباشا ."

عبارة طلحة صبت كل نظراتنا عليه

-"اظن كده ظلم لينا ."

نطقها الشيخ علي معارضا فرد عليه طلحة

-"الحكاية ببساطة أن الراجل هيدفع لنا الفلوس عند التسليم دا بالتأكيد احسن لنا و كمان المبلغ هيكون ضخم جدا و بالدولار ."

بيني و بين نفسي درست الأمر من جميع الجوانب ثم توصلت الي حل مريح

-"أنا اقترح اننا نفتح المقبرة و نصورها و نبعت له الصور علي الواتس و نشوف هيقدرها بكام و لو عجبنا السعر نسلمه و نستلم فلوسنا و يا دار ما دخلك شر ."

نالت الفكرة استحسان الجميع فهزوا رؤوسهم مرحبين

-"هنبدأ الكشف عن المقبرة امتي ؟"

نطقها طلحة متسائلا فرد الشيخ مجيبا :

-" اول ما يتوفر البخور و طلبات معينة نقدر نبدأ ."

-"لو علي البخور و الطلبات اعتبرها موجودة يا مولانا ."

كلمات طلحة اختصرت مسافات كثيرة من الحديث و النقاش فتناول الشيخ ورقة خط عليها ما يلزمه من بخور و طلبات ناولها لطلحة في صمت بينما تابع طلحة

-" كل طلباتك هاتكون جاهزة تحب فضيلتك نبدأ امتي ؟"

-"اواخر الشهر القمري هو أنسب وقت للتنقيب ."

مازال أمامنا فترة من الوقت فاليوم هو الخامس من نوفمبر ٢٠١٣ الموافق الاول من شهر محرم ١٤٣٥ .تري كيف سأقضى هذه الفترة ؟ لا يمكن أن أحيا هذه الفترة بلا عمل فأنا ممن أدمنوا الشقاء و ألفوه . يبدوا أن طلحة قرأ شيئا مما في داخلي فبادرني دون أن يرفع عينيه عن ذلك الطريق الاسفلتي الواسع :

-"اكيد بتفكر في شغلانة تشغل وقتك .صح ؟"

أدهشتني فراسة طلحة فأجبته مبتسما :

-"أنا سمعت كتير عن فراسة البدو بس ما كنتش متخيل انها بالقوة دي !"

تجاوز طلحة مديحي و اطرائي مواصلا حديثه :

-"ما تشغلش بالك عندي لك شغل ها يعجبك ."

حينما عدنا الي المنزل كانت روائح الفجر قد غمرت المكان .غادر طلحة تاركا إياي علي عتبة الدار ولجت المنزل شعرت بشيء من البرد فتناولت شيئا من تلك الملابس الفاخرة التي أحضرها لي طلحة . مخطئ من ظن أن المال لا يحقق السعادة ، فهو و إن لم يحققها كفيل بأن يوفر لك كل أسباب الراحة .

في عصر اليوم التالي كان بانتظاري مغامرة جديدة ، فقد حضر طلحة مستعدا متأهبا حاملا معه عملا جديدا:

-"أنا عارفك بتحب المغامرة لذلك جايب لك شغلانة هتحبها و هاتعجبك جدا."

لم أتساءل ولم اتردد لحظة واحدة في قبول العمل فأنا أعرف جيدا طبيعة طلحة ، فهو لا يختلف عني كثيرا .

-"اولا ها نعاين مسرح العملية علشان نحدد نقاط الضعف و القوة ... و دلوقتي يلا بينا ."

انطلقنا نحو تلك النقطة الحدودية و قبلها بعدة كيلومترات و عند منزل مبني بكتل من الحجر الجيري توقفنا . حينما فتح طلحة الباب طالعنا وجوه شاحبة من مختلف الأعمار . سامحوني في هذا الوصف و لكنهم بدوا لي كقطيع من خراف الاضاحي .ما لفت انتباهي بشدة هو ذلك الصبي النحيل و الذي لم يبلغ عامه الخامس عشر بعد .

-"اسمك ايه ؟"

سألته دون بقية المجموعة فأجاب بشيء من الخضوع :

-"اسمى علي من المنيا ."

تقاطرت حروفي تساؤلا و دهشة :

-"انت لسه صغير هاتعمل ايه في ليبيا ؟"

-"انا مستعد اشتغل اى حاجة المهم اجيب مصاريفي و مصاريف اخواتي ."

لم استطرد في تساؤلاتي فقد بدأ طلحة في توزيع قطع من الخبز علي المجموعة . انتابني شعور بالشفقة نحو هؤلاء البؤساء . تري ما الذي يدفع هؤلاء لهذا البؤس و الشقاء .

-"كل واحد يبلع قرصين من دا ."

قالها طلحة و بعدها قام بتوزيع حبوب التامول المخدرة علي الجميع .

بعدها بساعات و تحت جنح الظلام أمر طلحة الجميع بالخروج من المنزل :

-"بصوا يا جماعة دلوقتي ها نبدأ عملية الدخول للأراضي الليبية ها تبدأوا في الجري لما تسمعوا صوت الصفارة ، حذار أن حد منكم يتوقف عن الجري ،اللي يقف هتمسكه عساكر حرس الحدود ..مفهوم؟"

بعد أن تحرك الجمع بلحظات تناهي الي سمعنا صوتا قويا مزق الصمت و السكون من حولنا .

صفارة قوية علي إثرها انطلقت تحذيرات قوية من حناجر الجنود . حينما بدأ الرجال في الركض طلب مني أن أنطلق بالسيارة نحو الغرب من جهة أخري غير تلك التي سيعبر منها الهاربون .

-"بكده نكون ضربنا عصفورين بحجر واحد ."

خرجت كلماته بنبرة فيها شيء من المرح فتساءلت :

-"مش فاهم تقصد ايه ؟"

-" دورية حرس الحدود ها تطارد المتسللين و تنشغل بيهم في نفس الوقت احنا ندخل شحنة الترامادول ، عملية سهلة و نظيفة مش ها تستغرق اكتر من نص ساعة ."

لم يأبه و لم يلتفت لصوت إطلاق النار القادم من الجهة الأخرى إلا أنه حينما أحس بانشغالي هتف شارحا :

-" ما تخافش دى دورية حرس الحدود بتطلق النار علي المتسللين ."

-"تفتكر ممكن حد من المتسللين يموت ؟"

بلا مبالاة اجاب طلحة :

-" عادي ممكن يحصل بس عساكر الجيش مش بتضرب في المليان هي بتحذر فقط لا غير .فيه منهم بيقع في ايد حرس الحدود و دول بيكون حظهم حلو .و بيترحلوا مراكز و بيشوفوا العذاب الوان . و فيه منهم بيقع في قبضة تجار الاعضاء البشرية دول يتولاهم ربنا برحمته و فيه منهم اللي بيقدر يدخل ليبيا و دا برضوا بيشوف نفسه رق أو أسير و بيرمي كرامته و أحاسيسه في اقرب صفيحة زبالة ."

أفزعتني كلماته و تساءلت بيني و بين نفسي أي أوطان تلك التي نعيش فيها ؟ تلك التي ننشدق و نتغنى أنها مهبط الرسالات وارض الوحي و الانبياء . ما أغربها من أوطان تلك التي لا مكان فيها للفقراء .

بعد أن عبرنا الأراضي الليبية بعدة كيلومترات وجدنا في انتظارنا سيارة مماثلة لسيارتنا محملة بكراتين من الترامادول المخدر . عدنا بعد عملية استبدال سريعة و سهلة .

تكررت هذه العمليات القذرة مرات و مرات و كأننا شعوب لا تتعلم و لا تمنح الإنسان أو الإنسانية أدني قدر أو قيمة . و في الثاني من ديسمبر ٢٠١٣ كنا علي موعد مع مغامرة مختلفة . في جو من الصمت و الغموض تحركنا نحو الهدف المنشود. عند مقبرة القزم الحكيم كان اللقاء . قبل أن نبدأ طلب الشيخ من طلحة أن يبقي بعيدا حتي لا يصيبه مس او سوء عند تحضير الجن السفلي . بعد إطلاق البخور بدأ الشيخ

في تلاوة البرهتية . و هي عزيمة حقيقية يستخدمها أرباب السحر في تحضير الجن السفلي . ارجوك عزيزي القارئ لا تبحث عن هذه العزيمة و لا تحاول قراءتها حتي لا تصاب بمس أو أذي من الجن . تماما كما حدث في الماضي حضرت كردهار و قبيلها و فتحوا لنا المقبرة .

-" علشان نحافظ علي سرية الموضوع مش ها نستعين بأي حد في نقل محتويات المقبرة . ها ننقلها بنفسنا . انا عارف حجم المشقة بس مفيش قدامنا غير كده ."

بدا لنا كلامه منطقي للغاية خصوصا و أن مكان تخزين محتويات المقبرة قريب للغاية . تهلل وجه طلحة بعد أن قام بتصوير محتويات المقبرة و إرسالها عبر الواتس اب بعدها هتف مبشرا :

-" المقبرة حازت علي إعجاب الباشا ."

-" و السعر ؟"

تقاطرت حروف الشيوخ شراهة و هو يتساءل فرد عليه طلحه :

-" هيقيموا محتويات المقبرة خلال أيام و يبلغونا بالسعر لو عجبنا نسلمهم و نستلم ."

رغم وضوح الاتفاق إلا أن قلقا خفيا قد شب بداخلي .حاولت أن أطمئن نفسي فبعد هذه العملية سوف اعبر الي الاراضي الليبية و بعدها سوف تلحق بي فاطمة. بعد أيام وصلنا الرد من الباشا. خمسة و أربعون مليون دولار و تسليم النقود عند استلام المقبرة .

-" عرض ما يترفضش ."

نطقتها في شيء من اللامبالاة فبدا الحماس علي وجه الشيخ علي و الذي عقب في سرور مفرط :

-"دا عرض زي الفل أنا شخصيا موافق "

اتفقنا فيما بيننا علي قبول العرض . فى اليوم التالي و في الثلث الاخير من ليل تلك الليلة حالكة الظلام وصلت شاحنة ضخمة تحمل أرقاما دبلوماسية تتقدمها سيارة كاديلاك سوداء فخمة تعكس شيئا من ثراء و مكانة صاحبها . بعد معاينة محتويات المقبرة قدم الرجل لنا ثلاث حقائب ضخمة كل حقيبة تحوي خمسة عشر مليون دولار . بعد نقل محتويات المقبرة الى الشاحنة الدبلوماسية بمعرفة ذلك الغامض ومن معه انطلقت إلى الأراضي الليبية و منها الي ايطاليا .

بدأت تباشير الصباح في غزو الأرض و أوشكت الشمس علي البزوغ

-"بمناسبة نجاح العملية أنا عازمكم علي الفطار عندي ."

لم نجد في أنفسنا غضاضة من قبول هذا العرض فبعد هذا المجهود المضنى تداعت أمعاؤنا و استجارت من الجوع . منذ بداية الليل و لم تراودني كردهار .ترى اين اختفت ؟ و ما الذي أصابها ؟ هي غالبا تفر من أماكن الطهر و من أماكن ذكر الله . لم يطل تساؤلي فقد فتحت باب السيارة الخلفي جالسا الي جوار الشيخ علي تاركا سبق القيادة لطلحة فهو أدري و أعلم بالطريق الي بيته.

حينما دخلنا الي بيت طلحة أدخلنا الي حجرة مستطيلة مؤثثة علي الطراز الليبي و التي يطلقون عليها اسم المربعة . هناك وجدنا بانتظارنا وجبة دسمة شهية . بعد تناول الطعام ذهب طلحة و أحضر لنا كوبان من عصير المانجو. شيء من الشك تسلل الي داخلي بعد أن تناولت اول رشفة من المشروب الا انى تغاضيت عن شكوكي و جرعت كوبي دفعة واحدة . شعرت بشيء من الخدر يسري في جسدي . حينما نظرت إلى طلحة بدا علي وجهه ابتسامة و شعور بالتشفي . حينما قررت الفرار و الرحيل كان الوقت قد فات فقد تمكن الخدر منى .

-"أنا اسف يا صاحبي ، التمن باهظ و كبير و البضاعة رخيصة ما تستاهلش ."

كان هذا اخر ما سمعته من طلحة قبل أن اغيب عن الوعي .

لم أدر كم من الوقت قد مر علي في غيبوبتي الا انى حينما استيقظت وجدت نفسي واقفا و موثقا الي الحائط مكبلا بالسلاسل و الاغلال . للوهلة ظننت انى قد مت و اخذوني الي الجحيم للعقاب و الحساب الا ان صوتا اعرفه جيدا جعلني أتأكد أني من الأحياء :

-"اخيرا فقت يا سيد ..أنا خفت انك تكون مت .لأن اللى منتظرك ها يخليك تتمني الموت الف مرة."

في البداية كانت الرؤية مشوشة و مضطربة أمام عيناي ثم رويدا رويدا بدأت الصورة تتضح و يا ليتها لم تتضح، فأمام عيناي الذاهلتين كان يقف الباشا والد الطفل القتيل بشحمه و لحمه .

-"صاحبك باعك يا سيد . عارف باعك بكام ؟ بخمسة و أربعين مليون دولار . كلنا بنشرب من نفس الكاس اللي بنسقي منها غيرنا ."

صمت لثوان كانت كافية كي أتجول ببصري فاحصا المكان .يا للحسرة و الندامة أنه نفس المخزن الذي احتجزنا فيه الطفل القتيل قبل وفاته .

-"ابني فين يا سيد ؟"

صوته الهادر بدد ما تبقي من مفعول المخدر الذي وضعه طلحه في العصير .

-"أنا ما كنتش ...."

لم استطع ان اكمل عبارتي فقد لكمني الباشا بقبضته في قسوة

-"انت ما كنتش ايه ؟ ما كنتش موافق ؟ صح ؟ انت بريء و عنتر و علام هما السبب ؟.....أمك ."

سباب سوقي قذر ختم به الباشا عبارته فانتابتني موجه من الفزع و الهتاف

-"و المصحف يا باشا انا ماليش دعوة ب..."

صفعة قوية أخرستني و انتزعت اثنتان من اسناني ألقتهما خارج فمي

-"انت بتكلم مدير أمن يا روح أمك أنا ممكن أعصرك عصر زي الخرقة القديمة ."

-"ابوس رجلك يا باشا انا ماليش ذنب و كنت معترض علي خطف ابن سيادتك ."

حالة من الهدوء و السكينة انتابت الباشا فجأة لدرجة أصابتني بالقلق

-"انت بتعترف انكم خطفتوا ابني."

-"هم يا باشا علام و عنتر ."

-"تمام ..أنا هافترض انك صادق و هامشي مع الكداب لحد الباب ."

مرعبة هي تلك النظرة التي قذفني بها قبل ان يصيح بصوت كالرعد

-" هم خطفوا ابني و عملوا فيه ايه ؟"

-"انا ما اعرفش ...."

-"واضح أن ذهنك مشوش و ذاكرتك ضعيفة علشان كده لازم نصفي ذهنك و ننشط ذاكرتك ."

لم أفهم في البداية مغزي تلك الجملة إلا أنه هتف بصوت جهوري :

-"رمضان ."

علي إثر هتافه دخل شخص ضخم الجثة بادي الشراسة و الإجرام يحمل معه معدات و أسلاك كهربائية قام بتوصيلها بأطرافي

-"ذاكرة الأسطي سيد ضعيفة عاوزك تقويها و كمان ذهنه مشوش عاوزك تساعده علشان يفتكر كل حاجة .لازم يفتكر كل حاجة ..فاهم يا رمضان ؟"

أومأ رمضان برأسه و لم يتكلم ثم شرع في تنفيذ مهمته في براعة. و يا لها من مهمة قاسية و لعينة .

تشنجات قاسية و رهيبة و الام مبرحة لا توصف كانت تجتاحني في كل مرة يقوم فيها رمضان بتوصيل جسدي بالكهرباء. لم تبد علي وجه رمضان اي انفعالات و هو يمارس مهمته القاسية بينما راح الباشا ينفخ دخان سيجارته فى استلذاذ.

لا مكان هنا العواطف و لا مغني للإنسانية . كل ما كان يشغلني هو كردهار . أين هي و هل كانت مجرد حلم رأيته في نومي ؟ . رغم قسوة التعذيب إلا أن المواد و الحبوب المخدرة التي تعاطيتها فيما مضي منحتني صمودا أسطوريا .

الا أن صمودي لم يدم طويلا تحت وطأة مطرقة الكهرباء

-"أنا هاعترف بكل حاجة ...أنا هاتكلم."

-"واضح أن الكهربا نشطت ذاكرتك يا سيد ...عاوزك تقول لي ايه اللي جرا لابني بالتفصيل . "

بالتفصيل الممل قصصت عليه كل ما كان بينما ظل هو صامتا حتي وصلت إلى نهاية قصتي فهتف بعصبية و قد احمرت عيناه

-"انتو التلاتة اتفقتوا أن ابني مات و دفنتوه .كلام سليم ...فين الجثة ؟ عاوزك توريني المكان اللي دفنتو فيه الجثة ."

لم يكن أمامي أي خيارات سوي الانصياع و الخضوع .أشار إلي رجاله فقاموا بفك وثاقي ثم اقتادوني الي ذلك المكان حيث وارينا جثمان الطفل .بعدها بدأ الرجال يحفرون حيث أشرت لهم . أمر مذهل مريع ما حدث بعد ذلك .لم نجد أي أثر لجثمان الطفل . لوهلة شعرت أن الباشا أصابه الجنون فقد أقترب مني متوسلا :

-"أرجوك قول لي دفنتوا ابني فين .عاوز أعرف طريق قبره . عاوز أزوره ، أمه كمان نفسها تعرف له طريق قبر نفسها تزوره .انت ما عندكش اولاد .انت ما تعرفش معني الضنا ."

صدقني لو أن حجرا شاهد الموقف لبكي حزنا و أسفا علي حال الباشا و لكن للأسف اتضح لي أن قلوب بعض البشر هي كالحجارة أو أشد قسوة .اقترب مني الباشا و وضع يديه علي كتفاي ثم هزني بقوة :

-"انطق يا سيد ...اتكلم ..قول ..جثة ابني فين ؟"

-"اقسم لك بالله ان احنا دفناه هنا و بعد كده انا سافرت ..ممكن يكون السر عند عنتر و علام و...."

لم استطع ان اكمل عبارتي فقد احمرت عينا الباشا في غضب و لكمني لكمة قوية صائحا بصوت كهزيم الرعد

-"فين الجثة يا ابن ...."

-"اقسم لك يا باشا ان احنا دفناه هنا و..."

لم استطع ان اكمل عبارتي فقد هجم علي كالأسد الجائع لدرجة أني فقدت الوعي . قسوة الماء البارد أفاقتني و أعادتني الي الوعي بما حولي و يا ليتني لم أعد .فما كان ينتظرني من العذاب فوق طاقة البشر لدرجة اني تمنيت الموت . بل و دعوت الله أن يقبضني حتي استريح من هذا العذاب . و يبدو أن الله قد استجاب دعائي ففي اليوم التالي حضر الباشا مبكرا ثم صرخ قائلا :

-" هاتوا الكلبين من التلاجة."

تلك الجملة التي أطلقها الباشا أصابتني بالفزع و الرعب فقد توقعت أن يستخدم الباشا كلابا بوليسية تجبرني علي الاعتراف و البوح بما لدي إلا أن ما حدث بعد ذلك كان مختلفا تماما عما توقعت .ما حدث كان مرعبا و مخيفا فبعد لحظات اقتحم المكان أربعة من ضخام الجثث كل اثنان منهما يسحبان رجلا من قدميه كما تسحب الذبيحة بلا مبالاة و عدم اكتراث .حينها أدركت أننا أقسي من الضواري و الوحوش. اقترب الرجلان أكثر مني ثم ألقوا ما في أيديهم تحت أقدامي . مفاجأة مرعبة و مخيفة .تحت أقدامي مباشرة كان يرقد عنتر و علام و قد تهشمت أطرافهم بقسوة .منظر مرعب أثار الفزع في نفسي ، مرأي الدماء المتجمدة علي وجهيهما كان مرعبا للغاية . في البداية ظننت أنهما قد فارقا الحياة إلا أني لمحت فيهما بصيصا من الحياة حينما لاحظت علو و انخفاض صدريهما

-"دول أصحابك يا سيد اعترفوا بالجريمة زيك بس ما اعترفوش بمكان الجثة ."

تهاوي صمودي حينما وقعت عيناي علي عنتر و علام فهتفت في فزع

-"اقسم لك يا باشا ان ابن سيادتك مات بالغلط. ما كانش قصدنا قتله . بس هو مات .قضاء و قدر يا باشا ."

-"عموما انا هاسيبك مع اصحابك تسترجعوا ذكرياتكم ."

قالها ثم أشار إلي رمضان و هو يغادر:

-"فوقهم يا رمضان علي ما اتعشي و نرجع نكمل كلامنا ."

في هدوء مثير للأعصاب تحرك رمضان خارجا من المكان و بعد لحظات عاد حاملا جردلا ضخما ممتلأ بالماء البارد قذف به عنتر و علام . برودة الماء أيقظتهما الا انهما لم يقويا علي الحركة . بعد رحيل رمضان و بقية الزبانية لم يتبق في الحجرة سوي ثلاثتنا .لحظات لا تستطيع أن تصفها اقلام الأدباء و لا حناجر الخطباء فقدنا في هذه اللحظات القدرة علي النطق أو العتاب .فقط هي الدموع التي سادت الموقف و انتصرت فيه.

بعد قرابة الساعة عاد الباشا و من خلفه الزبانية منذ اللحظة الأولي لدخوله أدركت أني ضالته المنشودة

-"بص يا سيد هم الاتنين اعترفوا انك كنت معترض علي خطف الطفل من البداية لذلك أنا هاكون كريم معاك و ها اريحك."

قالها ثم مد يده الي جيب سترته الداخلية و اخرج مسدسه الأمريكي عيار ٩ مللي و صوبه نحوي .اخر ما سمعته هو دوي اطلاق النار .مشاهد كثيرة مرت أمام عيناي .أمام عيناي مرت صور متلاحقة لطفولتي و شبابي بعدها فقدت الوعي من جديد و كأني قد انتقلت الي العالم الآخر.

-" لسه عايش ما متش."

بدا لي الأمر كالحلم حينما تناهي الي سمعي هذا الصوت المنخفض و الذي خيل الي أنه يأتي من جب سحيق . شعرت اني مجرد روح هائمة في الفضاء تطوف حول جسدي المنهك المكدود. كأني في حلم مرهق مجهد أتطلع الي جسدي الملقي بين شواهد القبور و من حولي قد تجمع قوم علي أكتافهم ما يشبه النجوم . أشار أحدهم إلى من معه فوضعوني علي النقالة و من ثم في سيارة الإسعاف . مشاهد مختلطة غريبة بدت لي كحلم رأيت فيه أطباء و غرفة عمليات و أجهزة طبية ثم صوت رتيب منتظم لم أعرف مصدره بعدها فقدت الوعي من جديد . حينما أفقت هذه المرة وجدت نفسي علي سرير في مستشفى مكبلا بأساور حديدية و موثقا في الفراش .

-"أنا فين ؟"

واهنة و هزيلة خرجت الكلمات من فمي

-"انت هنا في المستشفى و لسه خارج من غرفة العمليات يا ريت ما تتكلمش كتير ."

ما إن انتهي جندي الحراسة من عبارته حتي دخل الحجرة أحد الأطباء من خلفه مجموعة الطاقم الطبي ومعهم وكيل نيابة و بعض رجال الشرطة . في صمت بدأ الأطباء في الكشف علي بعناية

-"امتي ها نقدر نستجوبه و نحقق معاه ؟"

انهمك الطبيب في فحصي و أجاب دون أن يلتفت الي وكيل النيابة

-"لسه شويه يا افندم مش اقل من اسبوع لأن حالته حرجة."

قبل أن يغادر وكيل النيابة أوصي رجال الأمن بتشديد الحراسة من حولي ، بعدها بدقائق غادر الأطباء و تركوني وحدي مع اثنين من رجال الحراسة . تلك المحاليل المتصلة بجسدي شدت من أزري و منحتني كما ضئيلا من الطاقة لم يكن كافيا كي أظل واعيا لفترة أطول لهذا فغبت عن الوعي من جديد .

-"سيد.... اصحي يا سيد."

تسلل صوت كردهار عبر انناي ففتحت عيناي في لهفة:

-"كردهار كنتي فين كل دا يا كردهار ؟"

-"سيد ...سامحني يا سيد ."

-"تتخلي عني في اصعب لحظات حياتي يا كردهار ."

لمعت عيناها بالدموع ثم طبعت قبلة علي جبيني

-" غصب عني يا سيد مش بايدي أنا في محنة رهيبة."

-"أرجوكى يا كردهار خليكي معايا ما تتخليش عني ...أرجوكى ساعديني اهرب من هنا ..ارج..."

وضعت يدها علي فمي في رفق

-" ارجوك يا سيد ما تتكلمش . الكلام و الانفعال الزيادة هيضروك ."

-"فاطمة ....عاوز اطمن علي فاطمة ، الجنين عامل ايه ؟"

أشاحت بوجهها دون أن ترد مما أثار قلقي و خوفي علي فاطمة فتشبثت بيدها راجيا

-"أرجوكى طمنني علي فاطمة ، فاطمة جرا لها حاجة ."

تبدلت ملامحها و اكفهر وجهها في قسوة و تبخرت نبرة الحنان التي كانت :

-"انت مفيش في فكرك و قلبك غير فاطمة ، حتي و انت بتموت مفيش علي لسانك غيرها . هي أجمل مني في ايه ؟ هي أحسن مني في ايه ؟علي فكرة اسلوبك الغبي أجج نار الحقد جوايا و ما قدرتش امسك نفسي .أنا قتلت فاطمة يا سيد .و علي فكرة أنا مطلوبة للمحاكمة من مجلس الجن الحاكم و انت السبب .حبك كان سبب في ضياعي يا سيد ."

شعرت بأن روحي بدأت تنسحب من جسدي . صدمة عنيفة و ذهول جعلاني أشعر بالشلل . لدهشتي ظهر فجأة اثنان من الجان شدا وثاق كردهار في احكام .

-"دول من شرطة الجن ..جايين علشان يقبضوا عليا ..رغم اني أميرة علي سبع قبائل من الجن .إلا أن مجلس الجن الحاكم حكم علي بالسجن المؤبد و عزلني . عارف ليه يا سيد ؟"

لم تجد مني ردا فواصلت :

-"لأن احنا عندنا عدالة حقيقية مفيهاش مجاملة عكس مجتمعاتكم يا سيد ..احنا عندنا عدالة و نزاهة ."

قالتها ثم انقادت لمعتقليها و تلاشي ثلاثتهم في ثوان . ربما كانت محقة في عبارتها الأخيرة إلا أنها لم تنتبه أن عدالة السماء لا تنسي و لا تخطيء و لا يمكن تضليلها أو التحايل عليها ، فمع رحيلها شعرت و كأن كل حمم الجحيم تنصب فوق جسدي و كأني أتنفس من ثقب إبرة .و كأن روحي خرقة بالية يتم انتزاعها من بين الآف الأشواك الصلبة القاسية .

اخر ما تناهي الي سمعي هو صوت تلك الصفارة المتواصلة و التي يصدرها جهاز قياس نبضات القلب المتصل بجسدي وصوت تلك الممرضة و هي تصيح

-"الحقني يا دكتور ...المريض بيموت . "

تمت

محمد علي محمد حماد

دلجا

يوم الجمعة الموافق الثامن و العشرون من مايو ٢٠٢١